ابعاد الرمز في الشعر العربي الحديث

احسان محمد جعفر

لم تكن الظروف التي احاطت بدخول التيار الرمزي الى الشعر العربي المعاصر مماثلة للظروف الاجتماعيــة والفلسفية التي ارهصت لولادة مذهــب (الرمزية) في فرنسا في القرن التاسع عشر • فقد كان هذا المذهب حركة احتجاج على روح البرجوازية المشبعة بحب العمل والنجاح وضد النظرة الوضعية والمادية للحيــاة ، وعلى الصعيد الفني جاءت احتجاجا على موجة الرومنطيقية التي اجتاحت الادب الفرنسي في القرن التاسع عشر واسرفت في استخدام الادب ، وبخاصة الشعر ، كوسيلة للتعبير عن المشاعــر الشخصية والعواطف الخاصة ، ورد فعل للبرناسية التي كانت مدرسة تصويرية ذات روح موضوعية صارمة ، كانت غاية الرمزية الفرنسية ان تبدع شعرا اكثر صفاء يجنح نحو اكتشاف المبهم والمضمر في الاشياء •

اما التيار الرمزي الذي اقتحم (خارطة) الشــعر العربي المعاصر من لبنان باكرا منذ العشرينيات من هــذا القرن على يد اديب مظهر المعلوف وبشر فارس ويوســف غصوب وسعيد عقل وصلاح لبكي فلم يات احتجاجا على اي من القضايا الاجتماعية او الادبية ، ويبدو ان تفسير ظهور الرمزية في ذلك الوقت المبكر انما يعود الى ان الموهبــة الشعرية اللبنانية ، لاتصالها المبكر بالغرب تمثلت اسس مذهب « الرمزيين » المعقد الذي عكسه بعض الشعراء •

ولقد حاول الاتجاه الرمزي في الشعر العــربي أن يتبنى لنفسه آراء رمزيي القرن التاسع عشر في فرنســا أمثال (استيفان مالارميــه) و (بول فالــيري) و (الاب هنري بريمون) و (شارل بودلير) اذ الرمزية عندهــم ترمي الى الايحاء بدلا من الافصاح ، والتلميح بــدلا من العرض • وسبيلها الاول الى ذلك هو الموسيقى التي تنبعث من جرس الاصوات وانسجاماتها وموسيقى التراكيب ، مع فطنة دقيقة الى وقع العناصر الموسيقية المختلفة وارتباطها بالمعاني المتباينة • ولما كانت هذه الوسائل لا تبلغ حــد الافصاح المباشر ، وكان أصحاب هذا المذهب لا يحرصون هم أنفسهم على هذا الافصاح ، فان شعرهم يكتنفه غموض كثيف ، وان كانت معانيه وايحاءاته بالغة العمق •

والمقصود بالرمز عندهم بقية التصفية الفكرية ، والجوهر الاقصى في كل تشبيه ، وليس هو اشارة تتحدد ، ولكنه وسيلة تعبيرية تسبر الاعماق وتستخلص المادة التي تحدق بنواة الفكر ، وبه يمكن الايحاء الى كل الاشياء والتعبير عن أية حالة من الحالات النفسية فكل ما في الكون ينزع الى أن يكون رمزا بعامل الفكر •

ولا شك أن سعيد عقل كان أعظم ممثل لهذه المدرسة وقد اكد في مقدمته للمجدلية (صدرت سنة ١٩٣٧) على أن الشعر يجب أن لا يخبر بل يومىء ويلمح ، وأصر مــا شأنه شأن بقية الرمزيين على الادراك اللامنطقي والحدسي للعالم وينفصل شاعر هذه المدرسة عن الحياة المادية وعن الاهتمام بمشكلات العصر حتى ان العلاقة بين الشــاعر والمجتمع ، في هذه المدرسة ، تصل الى الحضيض • غير ان شعراء العربية الجدد ، على الرغم من صدودهم الطبيعي عن تجربة « عقل » الجمالية ، استغلوها أعظم استغلال •

لقد أعطاهم « عقل » شعرا تخلص من الميوعة الرومنطيقية ومن الحشو والتراخي . ومن الاستعمال الغائم غير الدقيق للكلمة • ان شعر ما بعد سنة ١٩٤٨ في نماذجه الجيدة ، شعر رمز وايحاء وايجاز وشعراؤه مدينون في كل هذا لسعيد عقل بقدر ما هم مدينون فيه لرمزيي القرن العشرين في الغرب •

واذا كان الشعر العربي المعاصر قد تلقف الرمزية بمفهومها الحديث عن الغرب ، فان الشعر العربي القديم عرّف أنماطا من « الرمزية » لجأ اليها أبو تمام والمتنبي والشريف الرضي وسواهم من قدامى الشعراء ، كما ان شعراء التصوف من أمثال ابن الفارض والحلاج وابن عربي ارتقوا في تصنيع دلالات الرمز وساروا به أشواطا بعيدة•

لكن مفهوم « الرمز » عندهم وطريقة تناوله كان يختلف عن مفهومه الحديث الذي طرأ عليه تطور بعد تطور ••

فأبو تمام لم يتجاوز في احكام الرمزية في شعره صبغين من أصباغ التصوير وهما « التجسيم والتدبيج » • والمتنبي لم يزد على تصنيع مصطلحات التصوف واتخاذ منهجهم في الرمز والايحاء • غير أن بعضهم يرى أن الشريف الرضي هو « بودلير العرب » ، وواضع أسس الرمزية في الشعر العربي ، ويقابل ما بين الشريف والشعراء الرمزيين في مواضع شتى • ويزيد بعضهم أن شعراء التصوف يلتقون « بالرمزيين » في التعبير عن الحالة اللاواعية التي يعنون باستنباطها •

ومن نماذج الشعر العربي القديم التي لجأ فيها الشعراء الى الرمز قصيدة ابن الرومي التي يقول في مطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان

فيهن نوعان تفاح ورمان

وفوق ذينك أعناب مهدلة

سود لهن من الظلماء ألوان

قيل انها تصوير لجسد امرأة والرمز فيها يشير الى شيء حسي ، وهذا النوع من الرمز كثير في الشعر العربي القديم يلجأ اليه الشعراء لاعتبارات اجتماعية كالمحرمات ولاعتبارات جمالية أيضا . وهذا ما يسمى بالرمز الذي يستر . وهو يختلف عن النوع الآخر من الرمز الذي هو طريق ورؤيا ووجهة نظر يحاول الشاعر جاهدا أن يبدعها كي يرى حياته أو تجربته في نورها • وما يراه الشاعر هنا يتجاوز الحس الظاهر ، وهذا الرمز هو الذي يكشف ، وهو الذي أخذ به الشعر العربي الحديث لاظهار أبعاد المستقبل •••

فالرمز اذن في الشعر الحديث الذي اتضحت معالمه بعد سنة ١٩٤٨ غير الرمز بمفهوميه : القديم حيث نجده في كليلة ودمنة والحكايات التي وضعها الناس على لسان الحيوان وعند بعض الشعراء ، ومفهومه الذي نجده في آثار المدرسة الرمزية في القرن التاسع عشر ، ذلك أن الرمز « بالمفهوم الحديث » هو ذلك الرمز الذي يكشف وليس الذي يستر ، وقد توسع مفهومه فأصبحت الرموز تشمل الشخصيات التاريخية والاساطير •••

وقد استعمل عدد من الشعراء كخليل حاوي ويوسف الخال وأدونيس وبدر شاكر السياب وجبرا ابراهيم جبرا أسطورة تموز أو التنين أو بعل أو لعازر أو المسيح وكلها تومىء الى أن بلوغ العالم الجديد الذي يتوقون اليه لا يكون الا بالموت الذي يعقبه البعث والخصب أي بعث الاله أدونيس ـ تموز • وقد عبر هؤلاء الشعراء عن تجربتهم بواسطة الرموز الاسطورية المباشرة كأدونيس وخليل حاوي ويوسف الخال وغير المباشرة كالسياب وجبرا •

وها هو ذا خليل حاوي في قصيدته « لعازر عام ١٩٦٢ » يتخذ من لعازر رمزا للبطل الغائب الذي انتظرته أمته طويلا ، ولكنه حين يبعث من قبور الرجاء والانتظار تصرخ زوجته (الامة) :

غيبيني وامسحي ظلي وآثار نعالي ،

يا ليالي الثلج ، فيضي ياليالي •

امسحي ظلي أنا الانثى تشهت في السرير

خلف بعل لا يجير •

ماردا عاينته يطلع من جيب السفير •

أما موقف البطل من تلك الخيبة فكان موقف يأس :

الجماهير التي يعلكها دولاب نار ،

من أنا حتى أرد النار عنها والدوار ؟

عمق الحفرة يا حفار ، عمقها لقاع لا قرار •

وشعر حاوي من الكلمة الاولى في ديوانه (نهر الرماد) حتى الكلمة الاخيرة في ديوانه (رسالة الغفران) يستحيل رموزا : البحار ، الدرويش ، الناي ، الريح ، الام ، العجوز •••

ولان هذه الرموز كاشفة ، تجيء القصيدة بداية في رحلة الكشف ، وتستمر القصيدة بعد انتهائها الظاهري في العالم الذي تكون القت ضوءا عليه •

ان الرمز الساتر تنميق لفظي وزخرف تبقى علاقته بالقصيدة علاقة خارجية أما الرمز الكاشف فهو الرمز الحقيقي الذي يجعل من الشعر عملية رؤيا واكتشاف ، وبهذا يطبعه بحتمية لا تخفض الى شيء آخر • العلاقة هنا داخلية عضوية بين الرمز والقصيدة •

كما لجأ الشعراء أيضا الى استخدام الشخصيات التاريخية الاسطورية ونماذج عليا من الغرب والشرق كسيزيف ويوليس والسندباد وايوب والحلاج وعبد الرحمن الداخل وصاحب الزنج والفينيق وغيرهم •

ومن ذلك اختيار أدونيس للطائر الاسطوري المسمى « الفينيق » رمزا يجسد فيه معانيه الحلولية وتجاربه الثقافية ففي قصيدته التي تحمل اسم هذا الطائر الخرافي يبين لنا القبس الذي اليه يسير متأثرا بما تحققه رموز الاسطورة حيث يهدم الفينيق السدود بين الحياة والموت ويعلو على الحياة ويمتلكها بالموت اذ تقول أسطورته انه باحتراقه يبعث من جديد :

« تعرقنا ، تربطنا بريشك المرمد

لنهتدي • »

وحينما يحضنك الرماد اي عالم تحسه »

وبعلبك ما تكون ، ما يكون السحر الذي

امتلكت شمسه ؟ »

ما الموت يا فينيق ، اي عالم وراءه ؟ »

وقد طرأ على استخدام الرمز فكرة «الحلول» ذلك أن الشاعر يتحد بالشخصية أو الرمز الذي يتخذه قناعا في قصيدته •• بحيث يصعب علينا أن نفصل بينه وبين هذه الشخصية أو الرمز وعن هذا الطريق يمنح الشاعر تلك الشخصية التي توحد معها قدرة على تخطي الزمن والعبور الى « المعاصرة » وقوة لتعبر عن الطموح الجماعي •

ومن الشعراء الذين ادخلوا فكرة « التعبير بالقناع » على الشعر الحديث عبد الوهاب البياتي وادونيس غير أن البياتي يفترق عن أدونيس في أنه لا يتحد الا بالشخصيات الثورية وقد أخذ أدونيس اتحاده بشخصية عبد الرحمن الداخل في قصيدته (الصقر) لانه يعتبر شخصية عبد الرحمن — على قيمتها التاريخية الكبيرة — غير مسوغه بالنسبة للشاعر — الثورة • اذ لم يكن عبد الرحمن بالثوري انما كان حاكما هرب من الموت في دمشق ليوسس دولة له في صقع آخر •

ورموز البياتي متعددة ومتشابكة فرموز المدن والاسماء عنده كعشتروت وتموز وعائشة والصفصافة ولوركا والخيام وبابل وبغداد ونيسابور ومدريد وديك الجن وجاريته مدن وأسماء الماضي والمستقبل . وهي تؤلف عنده دلالات الحلول ، فهو يرمز الى لوركا مثلا بالثورة المغدورة وبعائشة الى التجدد والديمومة ، ويجمع بينهما وبين عشتروت ، ثم ان للدلالة اللفظية قيمة عنده فعائشة مشتقة من اسم الفاعل عائش وهو (الفعل) المستمر في لغتنا ولهذا مثلا لم يختر كلمة دعد أو زينب :

خبأت وجهي بيدي ،

رايت

عائشة تطوف حول الحجر الاسود في اكفانها

وعندما ناديتها : هوت على الارض رمادا وأنا

هويت فنثرتنا الريح

وكتبت أسماءنا جنبا الى جنب على لافتة الضريح

وقد تأثر الكثير من شعرائنا الحديثين في اعتماد الرمز والاسطورة في شعرهم ببعض شعراء الغرب كـ (ت• س• اليوت) ، وعلى الاخص بقصيدته (الارض الخراب) التي جاءت كنموذج يعكس الاستعانة بالاسطورة للتعبير عن الجدب والجفاف اللذين تمثلهما الحضارة الحديثة بالنسبة الى (اليوت) فتبنوا أسلوبه وتكنيكه وبعض رموزه •

أما ميزان العلاقة بين الرموز المكونة للصورة

الشعرية فشيء غاية في المرونة ولا يمكن ضبطه · ولعل السبب يرجع الى تلك الثنائية في طبيعة الرمز ، تلك التي تجمع في وقت واحد الحقيقي وغير الحقيقي ، والى مرونة المادة النفسية بصفة عامة ، وعلى هذا قد يمتزج الرمز في الصورة الشعرية بالحقيقة ، غير أن اختيار الرمز في تشكيل الصورة الشعرية لا ينفصل عادة عن سائر افكار القصيدة ، فليس اختيار الرمز اذن تعسفيا أو اعتباطيا وانما تدعو اليه ضرورة نفسية ·

ولننظر في هذه الصورة الشعرية ، انها قصيدة بعنوان (أنا والمدينة) للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي :

هذا أنا

وهذه مدينتي

عند انتصاف الليل

رحابة الميدان ، والجدران تل

تبين ثم تختفي وراء تل

وريقة في الريح دارت، ثم حطت، ثم ضاعت في الدروب

ظل يذوب

يمتد ظل

وعين مصباح فضولي ممل

دست على شعاعه لما مررت

وجاش وجداني بمقطع حزين

بدأته ثم سكت

ـ من أنت يا ··· من أنت ؟

الحارس الغبي لا يعي حكايتي

لقد طردت اليوم من غرفتي

وصرت ضائعا بدون اسم

هذا أنا

وهذه مدينتي !

وهكذا نجد رمز « الجدران » قد ترددت أصداؤه في شتى جوانب القصيدة ، كما انه يتفاعله مع الرموز الاخرى (الوريقة ، الظل ، عين المصباح ، الحارس) قد أحدثت نوعا من التماسك الشعوري في القصيدة كلها حتى جعل منها صورة نفسية موحدة ·

وهنا تتضح لنا طبيعة الرمز العجيبة ، تلك الطبيعة الثنائية التي تجمع بين الحقيقي وغير الحقيقي في وقت واحد · فالجدران والدروب والمصباح والحارس كلها عينات واقعة في المدينة غير ان هذه العينات والوقائع في الوقت نفسه لا تمثل اي تركيبة عقلية ذات دلالة خاصة · فالوريقة مثلا (وكونها وريقة يعلن منذ اللحظة الاولى عن تفاهتها وحقارتها) التي دارت في الريح ثم حطت ثم ضاعت في الدروب ليست الا صورة لتفاهة الانسان وضياعه ·

والحديث عن الرمز يجرنا للتحدث عن الغموض في الشعر هذا الاغماض الذي يكاد يطبق على شعرنا الحديث بلفه . ولا تكاد تخلو منه قصيدة حديثة ·· وقد شط بعض الشعراء في استعمال لغة الرمز وغالوا في ذلك مغالاة بلغت حد الطيش والولع فغدت قصائدهم طلاسم وبوابات يستحيل فتحها ··· ومن هؤلاء أنسي الحاج الذي يقول في قصيدة (الفيض) في ديوان (الرأس المقطوع) :

ذهب غراب

يحوم فوق المسك الممضوغ والاجناس المطفأة ·

وقبل أن نتساءل عن معنى هذا الكلام ، يجدر بنا أن نقرأ ما كتب أنسي الحاج على غلاف الديوان اذ يقول : « ان اللغة الشعرية في « الرأس المقطوع » غدت رمزا أي شعرا نافذا ، بليغا ، حافلا بمتع الفنون الجميلة كلها · كما غدت هذه اللغة مجردة · وهذه قيمتها ، من الفراغ القاتل بينها وبين مضمونها · فقد اتحدت به اتحادا واعيا وصارت واحدا ولكن بعد عدة أقانيم ··· »

أليس هذا عبثا في عبث ، فهل تعتبر اللغة الشعرية التي كتب بها هذا الكلام رمزا ؟ والام ترمز ؟ فمن الرموز ما هو شكلي ، كأن تقول (قلبي تفاحة حمراء ··) ومنها ما هو معنوي كالفقرة الرابعة (السندباد) من قصيدة (رحلة في الليل) لصلاح عبد الصبور وثالث الرموز ماهو أبسطها كرمز الاحالة · وفيه يحال الشيء الى شيء آخر شبيه به ، أو بصفة من صفاته ، اخفاء له ، أو لمجرد استبداله ···

وبهذا المستوى يصح لنا أن نتساءل عن ماهية (المسك الممضوغ) و (الاجناس المطفأة) ·· فما المفتاح السري

الذي تفتح به مثل هذه البوابات المغلقة ؟ واذا توقفنا قبلا عند صورة منها وهي « المسك المضوغ » محاولين أن ننفذ منها الى دلالة ما ، وجدنا أننا نلف وندور في حيز الصورة الشائهة ، فالمسك المضوغ هو المسك المضوغ ولا شيء آخر . فأين الرمز ؟

وهكذا يتضح لنا أن لغة الرمز ، تلك اللغة التي كانت مع الانسان منذ الإزل ، قد تطور مفهومها في الشعر عبر العصور نتيجة لتطور العقل الانساني ، فانتقلت هذه اللغة من حيز التحدث بلسان الحيوان ومجرد استبدال الشيء بشيء آخر في الآداب القديمة الى رمزية الايحاء والتلميح في القرن التاسع عشر ، ومن ثم ارتقت في عصرنا الحاضر الى التعبير بالقناع وحلول الشاعر في الرمز الذي يتخذه وسيلة لاغراضه ويظهر به عبر الكلمات ... اذ للرمز بالنسبة (للشاعر الحديث) أهمية حيوية ، ما دام الكون يخاطبه بلغة الرموز وما دام لكل شيء علاوة على مظهره الخارجي فحوى رمزي .

اللاذقية احسان محمد جعفر

طُرفة

قال الربيع (١) : خرجنا مع المنصور مُنْصَرَفنا من الحجّ ، فنزلنا الرضم (٢) ، ثم راح المنصور ورحنا معه . في يومٍ شديد الحر ، وقد قابلته الشمس وعليه جبة وشي . فالتفت إلينا وقال : إني أقول بيتاً من الشعر ، فمن أجازه منكم فله جبتي هذه . قلنا : يقول أمير المؤمنين . فقال :

وهاجرةٍ نصبتُ لها جبيني
يقطع حرها ظهر العصابه (٣)

فبدر بشار الأعمى فقال :

وقفت بها القَلُوص ففاض دمعي
على خدي وأسعدني عصابه (٤)

فخرج له من الجبة . فلقيت بشاراً بعد ذلك فقلت له : ما فعلت بالجبة ؟ قال : بعتها بأربعة آلاف درهم .

« العقد الفريد »

---

(١) هو الربيع بن يونس ، وزير من العقلاء المعروفين بالحزم .
(٢) موضع .
(٣) العصابة : ما عصب به والعمامة .
(٤) القلوص : الشابة من الإبل . وأسعد : أعان . وعصابة . جماعة .

قصّة قصيرة :

الموت البطيء

بقلم : عمر كابر هاشم

كان الليل قد اسدل بساطه الاسود على هذه الاكواخ المتواضعة وكانت العاصفة تصفر وتزمجر في ارجائها .. تكاد تقتلعها .. وكانت السماء تـرق لهذه الاكواخ المسكينة ، فتتجهم وتكفهر وترسل دمعتها - رأفه ورحمة بهذه الاكواخ وساكنيها ..

كانت الكواكب تلبس سواد الغيوم الحالكة المتراكمة حدادا عليها ، وكان الفضاء بحرا دامسا ، من شدة ما نسجه الظلام من خيوط داجية يقصر فيها قـاب العين ، وتتيه فيها اشعة النظر .. حتى عن نفسها ، يخيل الى الناظر ان السموات والارض مازالتا رتقا .

ضوء مصباح فاتر متواضع ، يبدو تارة ويختفي اخرى .. كانه يهمس في اذن الظلام ، ليتخلى عن اية زاوية من هذا الكوخ الحندسي ، ولكن الظلام لا يتجاوب مع ذلك الهمس .. يتحداه في كبرياء ساخرا ، ساكبا فيه ظلاما من ظلامه .. موحيا الى العاصفة الهوجاء باقتلاعه وطرحه خارج عوالم الدنيا .

صوت ضعيف ينبعث من اعماق كوخ متأرجح تحت وطأة العاصفة - يا الهي - انت العالم وحدك ، بضعفنا وحاجتنا الى ذلك الرجل المسكين ، الذي ضحى بكل حياته في سبيلنا .. متحديا كل العقبات .. يحمل مخلاته صباحا ، ويظل يجول هنا وهناك .. في الساحات العامة ، امام الحوانيت والفنادق والمصارف ، يهتف بكلمته المعبرة عن المآسي والحرمان " الصدقة " .. يريد من اصحاب الاماكن والمارة اهداء " اوقية " .. لقمة .. اي شيء يقوم به أود حياتنا المنهارة المتهدمة .. غير مبال بما يهدي اليه من شتائم .. يا الهي .. لقد تأخر عنا الليلة ولا ندري ما فعلت به يد الزمان .. يا الهي ..

ينبعث صوت آخر أضعف وانحل من الاول :

- أمي . مريم ..

- نعم .. يا بنتي زينب .

- لماذا تأخر والدي والده الى حد الساعة ، وهل تدرين اين توجه هذا المساء ؟

- استودعته الله .. انه ذهب بعد الظهر يبحث عن " الصدقات " ولكنه تأخر لسبب ما .. ارجو ان يكون خيرا .

- اني ليحزنني مصيرنا ان فجعنا الدهر في الوالد الـداه .

- صه .. لا تنطقي .. لا تنطقي .. ان البلاء موكل بالمنطق .. انه سيعود سالما

- اماه ان حضر الداه ولم يحضر لنا طعاما فماذا سنتعشى الليلة ؟؟

- ان الله يا بنيتي يرعانا ويرحمنا .. وسيسوق الينا رزقنا ..

- لا اعتقد ، فنحن منذ اكثر من اسبوع لم نجد ما يسد رمقنا .. وان ذا لدليل على ان رزقنا قد نفد من الارض ..؟

- صه .. يا يائسه .. صه يا ضعيفة اليقين .. اللهم عفوك .. انفعلت البنت اليائسة زينب من ذلك .. وتجافت عن الوالدة مريم ، الى زاوية اخرى من الكوخ المظلم ، لتجعل منها قبرا لها ولاخواتها السبعة .

تخفت مريم صوتها .. تتمتم ..:

- ولكن .. لا ملام عليك .. فانت ترعرعت في الفقر .. والجوع ، حتى بلغت الاشد ، الجوع .. انه مضخة اليأس ، ومهده ، وجسره الذي يعبر عليه الى قلوب البائسين ، ولكن اللوم ، كل اللوم .. هو على هؤلاء الذين تركوك تجوعين .. قرب اطعمتهم الشهية .. الذين تركوك بدون مأوى .. قرب قصورهم الشامخة .. الذين تركوك معدمة .. قرب دراهمهم الوافرة ، ثم رفعت يدها الى السماء :

- اللهم اني بريئة مما تقترفه هذه البنت الضعيفة الرجاء اليك من سوء الظن بك ، يا الهي ..

اللهم ان المسألة تقع على كواهل اولئك الاثرياء .. الذين تركوها فاغرة فاها .. لا تجد كسرة خبز ، ولا كوب ماء قراح .. يا رب .. لكم أطعموا المواشي ، وبقربهم

اناس يموتون جوعا ..
قالت ذلك ولفظت انفاسها الاخيرة ..
ساد الهدوء برهة .. لا حراك .. لا تنفس داخل الكوخ .. حتى بدأ الصباح يمسح عن وجهه سواد الظلام .. دخل العجوز اللغوب " الداه " وهو صفر الكفين .. فكانت الفاجعة .. رأى بين يديه ما اوقف دقات قلبه .. وامسك جريان الدم في عروقه .. منظر رهيب .. هذه نهاية الفقراء .. هذه نهاية المعذبين في الارض .. هذا مصيرهم في هذه الدنيا القاسية : بناته الثمانية ، وأمهم ، صرعى ممددات على بقية حصير من سعف النخيل .. لا حراك بهذه .. ليست عليهن من بصمات الحياة ، الا بسمات جاثمة على الشفاه الدكناء .. يصفعها الغبار.

قال بصوت خفي .. تخنقه حشرجة الموت : انا لله وانا اليه راجعون ، ثم حدق في اعلى الكوخ .

ـ كنت يا كوخ مأوانا في الحياة واليوم اصبحت مثوانا في الممات ، فيالك من صديق وفي .. وليت الذين في هذه الحياة كانوا مثلك .. اوفياء..

كانت آخر كلمة قالها الشيخ " الداه " .. وساد الصمت الابدي ذلك الكوخ الوفي ..

سحر الجفون و سحر البيان

دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل
فأتيت دون طريقه فزحمته
فازورَّ غضباناً وأعرض نافراً
حالٌ من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابي إلى أترابه
وزعمتهن لبانتي فأغرته
فمشى إلي وليس أول جؤذرٍ
وقعت عليه حبائلي فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادني
وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرت به على حرم الهدى
لابن البتول وللصلاة وهبته

أحمد شوقي

الشعر الاندلسي

عبد الله كنون

من أكبر مميزات الشعر الاندلسي التي تطالعنا عند بحثه أولا ، أنه شعر حضري لا جاهلية له وليس يشبهه في ذلك شعر قطر من الاقطار العربية . حتى العراق الذي بذ الاندلس في الحضارة نجد في شعره آثارة من هذه الجاهلية لا تخفى على الناقد البصير، اما في الالفاظ فانها تكاد تلمس ، واما في المعاني فان رواسب من أفكار شعراء الجاهلية لا تفتأ تطفو حينا بعد حين على صفحة هذا الشعر الرقراق الذي قيل - ويقال حتى الان - عند ضفاف الرافدين .

ولعل مرجع ذلك في البلاد العربية الى جسارة في الطباع ، وقساوة في البقاع ، فان الاقليم في الشرق ، ولو في العراق ،غيره في المغرب ولا سيما الاندلس . والمزاج يتكيف بتكيف الاقليم رقة وغلظة ، ولينا وشدة ، ما في ذلك شك .

وقد كان شعراء العراق كغيرهم ، يخرجون الى البادية ، فيتنقلون في القبائل لأخذ اللغة عن اربابها ، وتعلم الفصاحة من أصحابها ، كما نرى في ترجمة المتنبي والبحتري وأضرابهما ، فلزمتهم هذه البداوة وظهر أثرها في شعرهم . وأين هي هذه البادية من شعراء الاندلس الذين ولدوا في بحبوحة الحضارة ونشأوا في غضارة الترف ، فولد الشعر معهم ونشأ حضريا مترفا .

ومن بدا منهم كابن عبدون فانما قصاراه من البداوة المظهر الذي غر الوزير أبا بكر بن زهر (١) ، واما المخبر ، فانه الذي انجلى عن قصيدة :

" الدهر يفجع بعد العين بالاثر "

واما هؤلاء الشعراء الذين طرأوا مع الفتح من مثل ابي الخطار الكلابي والصميل بن حاتم فانهم وان كانوا يذهبون في شعرهم مذهب أهل الجاهلية ، فاننا لا نعدهم بحال من شعراء الاندلس ، لانهم لم ينشأوا فيها ولم يشتهروا بشعر كثير فيؤثروا فيمن أتى بعدهم ، فبقي الشعر الاندلسي مصونا من عنجهية البدو ، لا جاهلية له مطلقا .

ولقد استمر الحال بعد الفتح على ما يقتضيه طور التمهيد والتنظيم من الانصراف عن شؤون الادب والشعر الى ان قدم عبد الرحمن الداخل ، اي نحوا من ٤٦ سنة ، وحينئذ انفسح المجال امام شعراء الاندلس للتحليق في جو " الصقر " (٢) الذي القى الى النخلة بهذه النفثة السحرية :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول اكتئابي عن بني وعن اهلي

ومن ذلك اليوم تحدد موقع الشعر في الجزيرة ، فمن الوجهة الاجتماعية كان الامير المنشيء

للدولة المؤثل لمجد الاسلام شاعرا يعبر عن عواطفه بشعر بليغ ونظم رقيق ، فلم يستنكف من أتى بعده من الشعراء أن ينسجوا على منواله في تعاطي الشعر وحب الادب حتى كان كل أمراء بني أمية وخلفائهم تقريبا شعراء ، وكذا ملوك الطوائف الذين خلفوهم من بعد ، والناس على دين ملوكهم كما يقال، فقامت للشعر دولة ببلاد الاندلس لم يكن له مثلها بالبلاد الاخرى ، وبينما كان " الشعر بالعلماء يزري " في المشرق كما أتى في بيت للشافعي رحمه الله (٣) كان العلماء في الاندلس يتسابقون لنظم الشعر ويتباهون بمعرفته ، ولا يعدون العالم كاملا الا اذا شارك في علوم الادب بأوفر نصيب (٤) .

ولهذه المكانة التي كانت له في النفوس كثرت رغبة الناس فيه ، وصار طلبة الخاصة والعامة حتى قيل في مدينة شلب ان قليلا من أهلها من لا يقول الشعر، ولو مررت بالفلاح في فدانه وسألته عن العشر قرض في الحال ما اقترحته عليه (٥) .

ومن الوجهة الادبية ، فان الشعر في الاندلس لم يكن رجعا لصدى الشعراء القدماء ولا طبعا على الرواسم (الكليشيات) ، المعهودة ، فان عبد الرحمن لما كان فريدا غريبا في بلاد غير بلاده ورأى النخلة في موطن غير موطنها أشبه شيء به ، هاجت شاعريته ونطق بذلك الشعر الذي عبر عن ذات نفسه ، ولم يكن صنعة ولا زورا من القول ، فلفت نظر الشعراء بعده الى هذه الطبيعة البديعة ، او قل ان هذه الطبيعة التي أنطقته ، لفتت نظرهم الى جمالها الفتان وسحرها العجيب فقالوا فيها ماشاؤا وتفننوا مبا أرادوا .

ومن ثم كان أكثر شعرهم في الوصف والتصوير ولا سيما لمظاهر الطبيعة من الرياض والازهار ، والجبال والانهار ، والسحاب والامطار ، حتى عد ابن خفاجة أكثر وصاف الطبيعة وأحسنهم قولا فيها ، وألف ابو الوليد الحميري من أدبائهم كتابا كاملا من شعرهم في نعت الرياحين والزهور سماه " البديع في وصف الربيع " وهو ممن عاش في اول القرن الرابع ، فما بالك بماقيل بعده في هذا الصدد ؟

ولعل اول شاعر اندلسي يمثل بروحه الخفيفة وأدبه المرح هذا المحيط الحضري الرائق الذي نشأ فيه الشعر الاندلسي ، وهو يحيى الغزال المتوفى حوالي سنة ٢٥٠ ، وشعره مرآة صادقة لنفسه الطروب ، وقد كان ذهب سفيرا الى بلاد الروم فأعجب به الملك والملكة أيما اعجاب لفرط أدبه وجماله ، وجرت له مع الملكة محاورات جميلة ، وقال في ذلك أشعارا لطيفة .

ثم يأتي بعده اديب الاندلس أحمد بن عبد ربه مؤلف كتاب " العقد " المعروف ، وكان الجو الادبي بالاندلس يزداد صفاء كل يوم فلذلك جاء شعره ينفح بعطر الحضارة ويكاد يشرب من رقته وعذوبته ، وهو أن ألف لقومه ادب المشارقة ، فقد أعطى لهؤلاء نماذج من أدب الاندلس في مقطوعاته البديعة التي ضمنها كتابه الفريد ، ولئن قال الصاحب ابن عباد في العقد لما وقف عليه ، " هذه بضاعتنا ردت الينا " فلقد قال المتنبي في صاحب العقد، "ايه يا ابن عبد ربه ، لقد تأتيك العراق حبوا " وذلك عندما سمع أبياته العديمة النظير :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا
ورشا يتقطيع القلوب رفيقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله
درا يعود من الحياة عقيقا

واذا نظرت الى محاسن وجهه
ألفيت وجها في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقة
مابال قلبك لايكون رقيقا (٦)

وقد كان هذان الاديبان هما طرفا الادب في القرن الثالث (٧) ، وذكرهما يغني عن ذكر غيرهما

فلما دخل القرن الرابع دخلت الاندلس معه في عصرها الذهبي حيث بلغ التمدن فيها أوجه تحت حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم والمنصور ابن ابي عامر فانتشرت العلوم والفنون ، وارتقى المستوى الفكري غاية لم يصلها من قبل .

وفي هذا العصر كان التعليم قد عم سائر الطبقات ، فقلما تجد انسانا لا يعرف القراءة والكتابة ، والرجال والنساء في ذلك سواء (٨) ، واذا عم التعليم بهذه الصفة تنبهت المشاعر وتهذبت الاذواق ونشطت الحركة الادبية من عقالها وتقدمت أشواطا بعيدة في ميدان الابتكار والتجديد ، لأن الامة التي نضجت أفكارها لا تقبل من الانتاج الا ماكان حريا بالقبول ، وكان من أثر هذا النضج الادبي اختراع الموشحات التي صارت زينة الشعر العربي ، وهي هدية المغرب الى المشرق التي تقبلها بكامل السرور وسنتكلم عنها فيما بعد .

وقد أظل هذا العصر كبار شعراء الاندلس من مثل ابي القاسم ابن هاني وابن دراج القسطلي والرمادي ، وناهيك بهؤلاء الثلاثة ،

فأما ابن هاني فهو الذي يقال له متنبي المغرب ، عاش عيشة الاستهتار حتى تألب عليه اهل بلدة اشبيلية وخرج منها ولحق بالعدوة فلقي الخليفة المعز الفاطمي ومدحه فحظي عنده وكان يريد استصحابه الى مصر ، فمات مختصرا في عنفوان الشباب نتيجة اسرافه في السكر والمجون .

ولما بلغت وفاته المعز أسف عليه وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك . وكان يذهب في شعره مذاهب شتى من التفلسف والاستخفاف بالدين ونقد المجتمع ، وله أسلوب متين وعبارة جزلة ، واشتهر بحسن التشبيه واجادة الوصف ، ومن جيد شعره قوله :

أليلتنا اذ ارسلت واردا وحفا
وبتنا نرى الجوزاء في اذنها شنفا
وبات لنا ساق يقوم على الدجا
بشمعة صبح لا تقط ولا تطفا
أغن غضيض خفف اللين قده
وثقلت الصهباء أجفانه الوطفا
ولم يبق ارعاش المدام له يدا
ولم يبق اعنات التثني له عطفا

الى آخرها وهي قصيدة شهيرة

واما ابن دراج فقال فيه الشقندي ، انه شاعر الاندلس ، وقال الثعالبي هو بالصقع الاندلسي كالمتنبي بصقع الشام ، وكان شاعر الدولة العامرية غير مدافع وتأخر به الزمان الى أوائل القرن الخامس ، وأدرك ملوك الطوائف . ولم القصيدة الرائية الرائعة التي عارض بها أبا نواس فأربى عليه ، وفيها يقول :

ألم تعلمي ان الثواء هو التوى
وان بيوت العاجزين قبور
وان خطيرات المهالك ضمن
لراكبها ان الجزاء خطير

وأما الرمادي فهو يوسف بن هرون الكندي ، كان معاصرا للمتنبي ، وكان كثير من شيوخ الادب في وقته يقولون : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة ، يعنون امرأ القيس في الافتتاح لانه من كندة على ماهو معروف ، والمتنبي والرمادي في الاختتام لانتسابهما معا في كندة (٩) ، وكان شاعر الحكم المستنصر واختص بالحاجب المصحفي فأصابه شرر النكبة التي أنزلها المنصور ابن ابي عامر

بالحاجب المذكور ، وله من قصيدة هذه الابيات البليغة :

في اي جارحة أصون معذبي
سلمت من التعذيب والتنكيل
ان قلت في عيني فثم مدامعي
أو قلت في قلبي فثم غليلي
لكن جعلت له المسامع موضعا
وحجبتها عن عذل كل عذول

واذا تخطينا عتبة القرن الرابع الى الخامس ، عصر ملوك الطوائف ، وجدنا أن هيبة الخلافة الاموية وعزة سلطانها وان زالا معا فان مجدها الادبي بقي متمثلا في عدة عواصم بعد ان كان محصورا في قرطبة .. فهذه اشبيلية وفيها بنو عباد أصبحت تنافس قرطبة وتجاذبها رداء الفخار في هذا المضمار ، وهذه طليطلة ، وفيها بنو ذي النون - وسرقسطه - وفيها بنو هود - وبطليموس - وفيها بنو الافطس - وغرناطة - وفيها بنو زيري - والمرية - وفيها بنو صادح - ومالقة - وفيها بنو حمود في كل منها بلاط حافل بأهل العلم والادب وملوك يتسابقون الى الحصول على المشاهير من الكتاب والشعراء (فما كان أعظم مباهاتهم الا قول العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني ((١٠)) .

واذا كانت قرطبة قد احتجنت في عهد الخلافة الاموية سائر أهل الكفاءات الادبية ، فقد أديلت منها هذه العواصم الاخرى ، وكان ذلك في صالح العلم والادب حيث ان ازدحام البلاط القرطبي بأهل الفضل والنبل كان لا يدع مجالا للناشئين والوافدين من غير اهل الشهرة ، وحسبك بما وقع لصاعد في أيام المنصور بن ابي عامر وما قاساه من مكائد المنافسين له ، واما الان فان الاديب اصبح بالخيار على زمنه ، وحكمه نافذ على أميره ، لانه اذا آنس اهمالا او تضييعا سرعان ما يتحول الى حيث العز والكرامة في بلاط آخر .

وعلى كل حال فان هذا التنافس قد أبرز من الملكات ما كان خفيا ومن الشخصيات ما لولاه لكان نسيا منسيا ، وبذلك كانت الحياة الادبية في هذا العصر أزهى وأزهر منها في كل عصر آخر من عصور العرب في الاندلس ، فان عدد الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر لا يكاد يأتي عليه الاحصاء .

وكانت الظاهرة الادبية الغالبة على أدبائه ومثقفيه بل وفقهائه وعلمائه هي الشعر .. فلا تجد عالما ولا فقيها فضلا عن أديب لا يتعاطى الشعر ولا ينظم منه شيئا ولو قليلا .. وقد طغى ذلك على ما عند بعض العلماء فكانت صفته الشعرية ابرز جوانب حياته او على الاقل تجد جانب الشعر من حياته يتكافأ مع جانب العلم ، كما نرى في أبي بكر بن باجة الذي عرف للعالم بكونه أديبا موهوبا وشاعرا بليغا كما عرف بكونه فيلسوفا وطبيبا وموسيقيا ونباتيا بارعا في الجميع ، وكم له من نظير بين العلماء وبين الفقهاء ، وقد ترجم الفتح في " القلائد " و " المطمح " لكثير من العلماء وما اعتبر فيهم الا الناحية الادبية والشعرية كأنها هي المقصودة بالذات وما زاد عليها فانما هو فضل ونافلة من القول والعمل .

واذا ذهبنا نعرض اسماء الشعراء البارزين في هذا العصر نجد في طليعتهم ابا الوليد بن زيدون الذي يطلق عليه بحتري المغرب (١١) لرقة ديباجته وتفننه في ضروب الشعر ، وحقيقة فانه اذا كان ابن هانىء كالمتنبي يعتمد في اثارة الشعور على اظهار

القوة باصطناع الالفاظ الجزلة وتجسيم الاحداث الخطيرة مع تحكيم

العقل فيما يعرض من وقائع الحياة فان ابن زيدون كالبحتري انما يعتمد على الناحية الوجدانية فلا ضوضاء ولا جلبة وانما هي معان جميلة وصور سحرية لهواجس النفس واحاسيس الضمير في الفاظ رقراقة كالثمرة الناضجة تتدفق مائية وحلاوة ، فقارئه اذا كان متفتق الذهن مرهف الحس يشعر كأنه ينطق بلسانه ويعبر عن ذات نفسه ، لانه يمتزج به امتزاجا ويهيم معه في أودية الخيال الفسيحة فلا ينتبه لنفسه الا اذا انتبه الشاعر ، فرجع من رحلته وأفاق من غيبوبته

ويكفي ان يستعرض الباحث قصيدته الفريدة التي يقولها في في التشوق الى حبيبته ولادة بنت المستكفي ليرى حسن الافتنان في الوصف وجمال التصوير للعواطف ورقة الشعور في الحب ، وهي القصيدة التي لم يقل – مع طولها – في التشبيب أرق منها (٢ز) فبعد أن يفتتحها بوصف حاله في البعد وشكوى الزمان في التفريق بينه وبين حبيبته فيقول :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا ، فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصون الانس دانية
قطوفها ، فجنينا منه ماشئنا
ليسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لارواحنا الا رياحينا

يقول في وصفها ونشأتها الارستقراطية وتوصله اليها بكفاءة المودة :

وبيت ملك كأن الله انشأه
مسكا وقد أنشأ الله الورى طينا
أو صاغه ورقا محضا وتوجه
من ناصع التبر ابداعا وتحسينا
اذا تأود آدته رفاهية
تدمي العقول وأدمته البرى لينا
كأنما نبتت في صحن وجنته
زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ماضر ان نكن أكفاء شرفا
وفي المودة كاف من تكافينا

ويطول بنا الحال ، اذا تتبعنا ما فيها من عيون الابيات وفرائد المعاني . وقد ولد ابن زيدون في قرطبة في أعقاب الدولة الاموية ولكنه لم ينبغ ولم يشتهر الا بعد انقراضها ، وخدم ابن جهور والمعتضد بن عباد في اشبيلية ثم ولده المعتمد وزين له غزو قرطبة فملكها ، وكان يلقب بذي الوزارتين ، وبلغ في علو القدر ورفعة الشأن ما لم يبلغه أديب غيره . وتعشق ولادة بنت المستكفي وكانت أديبة شاعرة الا ان الوزير ابن عبدون كان ينافسه في حبها واستأثر بها دونه وكاد له بسبب ذلك بكائد ، وتوفي عام ٤٦٣ .

وكان ابن عبدون عند بني الافطس في بطليوس كابن زيدون عند بني عباد باشبيلية ، وهو نظيره في الادب والشعر ، وسير في رثاء مواليه لما دالت دولتهم على يد المرابطين قصيدته الخالدة التي يقول فيها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر
فما البكاء على الاشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك منصحة
عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان ابدى مسالمة
والبيض والسود مثل البيض والسمر

ولا هوادة بين الرأس تأخذه
يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا يغرنك من دنياك نومتها
فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي – أقال الله عثرتنا
من الليالي – وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة
منا جراح وان زاغت عن النظر
تسر بالتي ، لكن كي تغربه
كالأيم ثار الى الجاني من الزهر

•• وقد ذكر فيها مصارع الملوك وعظماء الرجال الى زمنه ، ثم بكى بني الافطس بما لم يبك به شاعر دولة ، ومن أبياتها الفذة هذا البيت الذي عبر فيه عن علوية في براءة علوية :

وليتها اذا فدت عمرا بخارجة
فدت عليا بما شاءت من البشر

ويقول بعده مشككا في اغتيال الحسن بن علي بما هو أبلغ من اليقين :

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن
أتت بمعضلة الإلباب والفكر
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد
وبعضنا ساكت لم يوت من حصر

ومنها في ذكر المتوكل وولديه العباس والفضل من بني الإفطس :

ويح السماح وويح اليأس لو سلما
وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية
تعزى سماحا اليهم لا الى المطر

الى أن يقول :

على الفضائل – الا الصبر – بعدهم
سلام مرتقب للاجر منتظر

وبالجملة فانه مهما قيل في وصف هذه القصيدة وتقريظها ، فان القائلين لم يوفوها حقها ولم يكونوا مبالغين فيما قالوه عنها ، وأحسن شيء فيها هو ما سلكه ابن عبدون من البكاء والاستبكاء على ضياع ملك سادته ، وابادة الدهر لهم من غير ان يعرض بخصومهم المرابطين ولا ان يتناولهم بأدنى تجريح ، وتلك لعمري براعة تشهد له بحسن التصرف في القول والتفنن في الكلام ، وكان المتوكل بالمكان الذي وصفه ابن عبدون وأعظم نبوغا في العلوم والاداب مع رسوخ قدم في الجود والشجاعة ، ولم يكن في ملوك الطوائف أفضل منه ولا من المعتمد بن عباد ، فانهما كانا فرسي رهان في جميع الفضائل وخاصة العلم والادب ، وكان المعتمد أشعر والمتوكل أكتب (١٣) •

واذا ذكرنا المعتمد فلا بد أن نعطي صورة مصغرة عنه وعن أدبه ، فقد كان هذا الملك الشاعر فذا في الملوك ، فذا في الشعراء ، حتى لقد بلغ من شأنه أنه لا يمكن ان يذكر ملوك الطوائف بل ملوك الإندلس على العموم ولا يذكر المعتمد ، وانه لا يمكن ان يذكر شعراء الاندلس او الشعر العربي على العموم ولا يذكر المعتمد ، وكان مما انطوى عليه من الفضائل واحتواه من المكارم بحيث لو لم يثبت وجوده تاريخيا لقلنا انه شخصية خيالية أضفى عليها الشعر والقصص حللا وبرودا ، من الاجلال والتقديس ، ففي حالة الشدة والبأس نجده مكافحا عبقريا لاثبات ملكه وتوسيع نفوذه ، ومجاهدا متفانيا في صد موجة الإكتساح الإسباني الذي اراد ان يستصفي الإندلس في اواسط القرن الخامس • وفي حالة الرخاء والنعيم نجده ذلك المترف المرفه الذي اسرف في المتاع وأسرف في

الإستهتار حتى كان لم يوم الطين الذي لم يكن لملك غيره (١٤) وفي الشعر والادب نجده ذلك العلم المفرد بين الملوك والرؤساء ، قد انقطع لمطارحة شعراء وقته من وزراء وكتاب بالقصائد البليغة والابيات النادرة حتى يحسبه الإنسان أنه لا شغل له إلا قول الشعر والاجتهاد في اجادته واحسانه ، وكيف لا وقد نشأ في بيت الشعر والادب والرياسة والملك فقد كان أبوه المعتضد وجده ابو القاسم شاعرين . وكان لابيه دار مخصوصة بالشعراء وديوان تقييد فيه أسماؤهم ، وقد جعل لهم يوما يفرغ لهم فيه فلا يدخل على الملك فيه غيرهم

واجتمع بحضرة المعتمد منهم مالم يجتمع بحضرة غيره ، فكان عنده ابن زيدون وابن عمار وابن اللبانة ، وكل واحد من هؤلاء فيه كفاية ، على ان شخصية المعتمد زادت بروزا بهذه النكبة التي حاقت به وتركت الاكبادتتقطع حسرة على ما اصابه من اسى وفضيحة بعد سابق العز والسلطان، وزاد شعر المعتمد في هذه المدة اثارة للبلابل في الصدور وتحريكا للشجو والنفوس ، فكان والحق يقال أشجى شعر قيل في نكبة حقت بعظيم ، ومن شعره هذا :

لما تماسكت الدموع
وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة
فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو
ع على فمي السم النقيع
انتستلب عني الدنيا
ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه
لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرفا الطبا
ع ، أيسلب الشرف الرفيع

قد رمت يوم نزالهم
ألا تحصنني الدروع ؟
وبرزت ليس سوى القميـ
ص عن الحشاشة دفوع
وبذلت نفسي كي تسيـ
ل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن
بهواي ذلي والخشوع
ماسرت قط الى القتا
ل وكان من أملي الرجوع
شيم الالى أنا منهم
والاصل تتبعه الفروع

ومنه في يوم عيد وهو بالسجن :

فيمامضى كنت بالاعياد مسرورا
فساءك العيد في أغمات مسرورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن في الطين ، والاقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت اساءته
فكان فطرك في الاعياد تفطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا
فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به
فانما بات بالاحلام مغرورا

واذا ذكر المعتمد ذكر معه بالطبع ابن عمار وزيره ورفيقه ونظيره في الشعر . وهو ممن كان يذهب مذهب المتنبي ويأخذ آخذه في طلب المعالي والتهجم بالسلطان وشعره مرآة لنفسه القوية وطبعه الجموح ، على أنه كسائر شعراء الاندلس رقيق الغزل لطيف المحاولات لفنون الشعر المختلفة ، وكان قد لحق بخدمة المعتضد بن عباد واختص بولده المعتمد ولزمه ملازمة شديدة حتى صار لايرى الا معه ، ولما ولي المعتمد على مدينة شلب من قبل والده إستوزره وسلم اليه جميع اموره فغلب عليه

ابن عمار غلبة شديدة وساءت السمعة عنها ففرق بينهما المعتضد ، وأبعد ابن عمار عن ايالته فلم يزل مبعدا حتى توفي المعتضد فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب ، ثم وقع بينهما ما أوجب سجنه وقتله ، وقد تشفع له ابن عمار واستعطفه ببليغ الإشعار فلم يؤثر ذلك فيه شيئا ، والملك كما يقولون ، عقيم ، لا يرعى ولي او حميم ، ومن شعره يستعطفه :

سجاياك ان عافيت أندى وأسمح
وعذرك ان عاقبت أجلى واوضح
وان كان بين الخطتين مزية
فأنت الى الادنى من الله تجنح
وماذا عسى الاعداء ان يتزيدوا
سوى ان ذنبي ثابت ومصحح
وان رجائي ان عندك غير ما
يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
أقلني لما بيني وبينك من رضى
له نحو روح الله باب مفتح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم
فكل اناء بالذي فيه يرشح
وقالوا سيجزيه فلان بذنبه
فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا ان بطشا للمؤيد يرتمي
ولكن حلما للمؤيد يرجح

ومن شعره قصيدته التي صارت أشرد من مثل في مدح المعتضد ، وكانت سبب تقريبه له ، وأولها :

ادر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره
لما استرد الليل منا العنبرا

ومن ابياتها بيت قال فيه المراكشي صاحب " المعجب " انه لم يسمع لمتقدم ، ولا لمتأخر مثله وهو قوله :

السيف أفصح من زياد خطبة
في الحرب ان كانت يمينك منبرا

وله حين فرق المعتضد بينه وبين المعتمد ، وهو مما تظهر عليه نزعة المتنبي :

علي ، والا مابكاء الغمائم
وفي ، والا مانياح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب
لثأر وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها
لغيري ولا قامت له في مآتم

واذا كان عصر ملوك الطوائف قد انتهى مع هؤلاء الشعراء ، فلقد قد امتد مع غيرهم كابن اللبانة وابن خفاجة وسواهما الى عصر المرابطين ، فأما ابن اللبانة فهو ابو بكر محمد بن عيسى اللخمي من أهل مدينة دانية . وقد اشتهر بوفائه للمعتمد ورثائه له بعد موته ، وهو شاعر من أهل الاجادة والاحسان . وفد على المعتمد في أواخر ايامه ومدحه ، ثم بعد زوال ملكه لحق بجزيرة ميورقة وبها ميشر العامري فحظي عنده ، وله فيه أمداح .. ومنها قصيدة غريبة المنزع جعلها من أولها الى آخرها ، صدر البيت غزل وعجزه مدح ، وهي :

وضحت وقد فضحت ضياء النير
فكأنما التحفت ببشر ميشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته
ماقلدته محامدي من جوهر
وتكلمت فكأن طيب حديثها
متعت منه بطيب مسك أذفر
هزت بنغمة لفظها نفسي كما
هزت بذكراه أعالي المنبر
أذنبت واستغفرتها فجرت على
عاداته في المذنب المستغفر

وأما ابن خفاجة فهو شاعر الطبيعة المبدع في وصف آثارها ومظاهرها ، من الرياض والرياحين والماء والغمام والشمس والظل والجبال والاشجار وما الى ذلك .. لم يلتفت الى منصب ولا الى جاه ، ملأ جمال الدنيا عينيه فمال

بكليته اليه ، يغني ويشرب ويشعر ويطرب ، الى ان توفي بمسقط رأسه من جزيرة أشقر . ومن شعره يصف نهرا :

لله نهر سال في بطحاء
أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه
والزهر يكنفه ، مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا
من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها
هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء اسرع جريه متحدرا
متلويا كالحية الرقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الاصيل على لجين الماء

وله في بلاد الاندلس :

يا أهل اندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار واشجار
ماجنة الخلد الا في دياركم
ولو تخيرت هذي كنت إختار
لا تخشوا بعدها ان تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار

وبعد ملوك الطوائف والمرابطين أظل الاندلس ملك الموحدين ، وقد بلغت الى أقصى غايات المجد العلمي والرقي الفكري ، ففي عهدهم نبغ الفلاسفة العظام مثل أبناء زهر وابن طفيل وابن رشد ، وزادت النهضة الادبية اتساعا حتى اصبح الشعراء يعدون بالعشرات . ولقد جلس لهم المنصور الموحدي يوما وجاءوا يهنئونه بانتصاره في موقعة حربية ، فكانوا من كثرتهم انما يلقون البيت الاول من قصائدهم ، ويضعون الورقة التي كتبت فيها القصيدة أمامه ، فما انتهى عددهم حتى كانت الاوراق تحول بينه وبين الناس من كثرتها ، ولا تستطيع ان نعد جميع الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر ، وانما نقتصر على ذكر ثلاثة افراد منهم نعتقد انهم يمثلون عصرهم أحسن تمثيل ،وهؤلاء هم الرصافي وابن مجبر وصفوان ابن ادريس .

فالرصافي هو محمد بن غالب البلنسي ، نسب الى رصافة بلنسية وكان شاعرا مجيدا نزيها عنيفا ، وله في عبد المؤمن بن علي القصيدة المشهورة التي أولها :

لوجئت نار الهدي من جانب الطور
قبست ماشئت من علم ومن نور

وفيها يصف جبل طارق — وكان عبد المؤمن يسميه جبل الفتح — وصفا بليغا ويذكر مجمع البحرين واسطول الموحدين الجربي ويمدح المهدي ابن تومرت وعبد المؤمن مشبها لهما بموسى ويوشع عليهما السلام ، وهاك قوله في وصف الجبل :

لله ما جبل الفتحين من جبل
معظم القدر في الاجيال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس
له من الغيم جيب غير مزرور
معبرا بذراه عن ذرى ملك
مستمطر الكف والاكناف ممطور
تمسي النجوم على اكليل مفرقه
في الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها
بكل فضل على فوديه مجرور
وأدرد من ثناياه بما أخذت
منه مفاحم أعواد الدهارير
محنك حلب الايام أشطرها
وساقها سوق حادي العير للعير

وان مجبر هو ابو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحيم ابن مجبر الفهري من أهل بليش ، قرية قرب مالقة ، كان من أشعر أهل زمانه وكان مختصا بالمنصور الموحدي ملازما له ، وكان المنصور يعظمه ويقدمه على غيره من شعراء وقته وله فيه أمداح كثيرة ، وهو القائل في وصف المقصورة " الاوتوماتيكية التي أنشأها المنصور بجامعة بمدينة مراكش بعد ماعجز الشعراء عن وصفها :

طورا تكون بمنحوته محيطة
فكأنها سور من الاسوار
وتكون حينا عنهم مخبوءة
فكأنها سر من الاسرار
وكأنها عملت مقادير الورى
فتصرفت لهم على مقدار
فاذا احست بالامير يزورها
في قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ، ثم تخفى بعده
كتكون الهالات للاقمار

وأما صفوان بن ادريس فهو ابو بحر التجيبي من أهل مرسيه ، كان شاعرا وكاتبا وله كتاب " زاد المسافر " هو أحد المجموعات التي تؤلف خزانة الادب الاندلسي ، ومن شعره الهمزية المشهورة بين أدباء المغرب وأولها :

جاد الربى من بانة الجرعاء
نوآن من دمعي وغيم سماء
فالدمع يقضي عندها حق الهوى
والغيم حق البانة الغناء
خلت الصدور من القلوب كما خلت
تلك المقاصر من مها وظباء
ولقد أقول لصاحبي وانما
ذخر الصديق لآكد الاشياء
يا صاحبي ولا أقل - اذا انا
ناديت - من أن تصغيا لندائي
عوجا نجار الغيث في سقي الحي
حتى يرى كيف انسكاب الماء
ونسن في سقي المنازل سنة
نمضي بها حكما على الظرفاء

ويأتي بعد هذا العهد عهد غرناطة وملوك بني الاحمر ، وحسبنا ان نذكر غرناطة فنذكر الشعر والشعراء والحياة الادبية الراقية التي قضتها هذه المدينة في عهد ملوكها الرافلين في حلل النعيم في قصور الحمراء الزاهية وبين ظلال جنات العريف الوارفة ، ولا حاجة بنا الى ذكر شعراء هذا العهد ، فان واحدا منهم يكفي للتنويه بنهضة الشعر فيه وهو لسان الدين بن الخطيب الذي ملأ الدنيا شعرا وأدبا ، وعفى ذكره على السابقين واللاحقين من ادباء الاندلس ، فما من مجال الا وله فيه ذيل سحب ، وما من موضوع الا وقد تناوله بذراع رحب ، وبقدر ماله في الشعر من الايات البينات ، فان له في النثر الفني والكتابة العلمية والتاريخية الاثار الخالدات ، وبالجملة فقد كان معجزة قطره ومفخرة عصره ، ولم يبالغ من قال فيه انه شاعر الدنيا واديب الاندلس ، اذ كان يقصد دنيا العروبة في هذا العهد . ولا نستطيع ان نقدم نماذج من شعره تمثل نفسيته وطابعه الادبي ، فان شعره كثير ومناحيه الفنية متعددة فلنقتصر على قطعة او قطعتين منه .

" ومن البحر احتزاء بالوشل " قال يتشوق

سقى الله نجدا ما اتضحت بذكرها
على كبدي الا وجدت لها بردا
وآنس قلبي فهو للعهد حافظ
وقل على الايام من يحفظ العهدا
صبور وان لم يبق لي الا ذبالة
اذا استقبلت مسرى الصبا اشتعلت وقدا
وقد كنت جلدا قبل ان يذهب النوى
ذمائي وأن يستأصل العظم والجلدا

وقال مخاطبا السلطان أبا عنان المريني ، وكان قد وفد عليه من قبل سلطانه الغني بالله في جملة من أعيان مملكة غرناطة مستنجدا به ، فحين مثل بين يديه أنشده وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر
علاك ما لاح في الدجا قمر
ودافعت عنك كف قدرته
ماليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى
لنا وفى المحل كفك المطر

والناس طرا بأرض اندلس
لولاك ما أوطنوا ولا عمروا،

وجملة الامر انه وطن
في غير علياك ماله وطر
وقد أهمتهم نفوسهم
فوجهوني اليك وانتظروا

فاهتز السلطان ابو عنان

لهذه الابيات وأذن له في الجلوس وقال له ما ترجع اليهم الا بجميع طلباتهم ، قال القاضي ابو القاسم الشريف شارح مقصورة حازم وهو من مشائخ لسان الدين وكان معه في هذه الوفادة : " ما سمعنا بسفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان الا هذا " ولا شك ان ذلك من براعة لسان الدين الرائعة وبلاغته الفائقة .

* * * *

وهذا الاستعراض على سرعته لا تم اذا لم نتعرض لنوابغ النساء الاندلسيات في الشعر ، وما كان لمشاركتهن من بليغ الاثر في الحياة الشعرية بالاندلس ، وقد بدأ نبوغهن ميكرا في اول عهد الدولة الاموية ، لما قلنا من ان الشعر الاندلسي نشأ حضريا من أول يوم ، ونبوغ النساء في العلوم والفنون هو وليد الحضارة والحياة العقلية المترفة .

وقد كانت لبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر من الاديبات الشاعرات المتفوقات ، وكانت تعاصرها حسانة التميمية بنت ابي الحسين الشاعر والشاعرة الغسانية ، وحفصة بنت حمدون ، واشتهرت بعد هؤلاء عائشة القرطبية التي لم يكن في زمنها من حرائر النساء من يعدلها علما وفهما وأدبا وشعرا وفصاحة ، تمدح الملوك وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة ،وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف وماتت عذراء سنة ٤٠٠هـ ( )

ثم اشتهرت في القرن الخامس مريم بنت ابي يعقوب الانصاري والشاعرة الاديبة التي كانت تعلم النساء الادب ، وأم العلاء بنت يوسف الحجارية ومولاة ابي المطرف بن غلبون العروضية ، وولادة بنت المستكفي الشهيرة ، ومهجة القرطبية ، ونزهون الغرناطية ، وحمدونة بنت زياد المؤدب والعبادية والدة المعتمد واعتماد محظيته وبثينة بنته وام الكرام بنت المعتصم بن صمادح وغاية المنى جاريته ، ثم اشتهرت في اوائل القرن السادس الاديبة الشلبية ، وأسماء العامرية وحفصة الركونية وغيرهن ممن استوعب المقري ذكرهن وأتى على كثير من أشعارهن ولطائفهن .

ونحن نكتفي بذكر اثنتين من هذا العدد الكثير وهما : ولادة وحمدونة :

فأما ولادة فهي بنت الخليفة المستكفي بالله ، كانت واحدة زمانها في الادب والشعر ، حسنة المحاضرة لطيفة المعاشرة مع الصيانة والعفاف ، وكان ابن زيدون يتعشقها وله فيها القصائد الطنانة والمقطعات البديعة ، وكانت اولا تطارحه شعرا بشعر وتبادله حبا بحب ، ثم قلبت له ظهر المجن وصارت تهجوه ، وكان لها مجلس يغشاه ادباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وانشاد الشعر كثير .

ومن بديع شعرها ما كتبت به الى ابن زيدون :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي
فاني رأيت الليل اكتم للسر
ولي منك مالو كان بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وأما حمدونة بنت زياد المؤدب التي يقال لها خنساء المغرب لقوة شعرها وسمو

ابداعها ، ولها المقطوعتان المشهورتان بالشرق والمغرب واللتان ما زال أهل البلاغة يجعلونها مثالا أعلى للنسج على منواله والحذو جذوه وهما :- هذه؟

ولما ابى الواشون الا فراقنا
وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة
وقل جماتي عند ذاك وانصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي
ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وهذه :

وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحة فحنا علينا
جنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا
ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم

ولعلنا وقد انتهينا من هذا الاستعراض ، قد ظهرنا منه بالرغم من قصره على تلك الظاهرة ، التي اسلفنا الكلام عليها ، وهي أن هذا الشعر الاندلسي حضري مترف لا جاهلية له ولا بداوة وانه منذ نشأ كان كذلك ، لم يحمل من معاني الشعر الجاهلي والفاظه ما حمله غيره من الشعر العربي في الاقطار الاخرى غير الاندلس ، ولم يمثل غير نفوس اصحابه ومجتمعهم ومحيطهم .. على انه لما ضاق به مجال التعبير ، واحتاج الى التحرر من القيود اللفظية لم يخرج من مواضعات القوم الا بمقدار ما تسمح به طبيعة اللغة العربية المحافظة على ارث الاجداد ، فاخترع هذا التوشيح الذي هو فن أندلسي محض ، أدخل على الشعر العربي تحسينا في الصناعة كما جعله ألين مراسا وأسلس قيادا ، مما كان عليه قبل ، اذ كانت القافية تتحكم في الشاعر فتركبه المراكب الصعبة للبلوغ الى مقصده ، ويضطر بذلك الى استعمال الالفاظ المألوفة وغيرها دع عنك سآمة النفس ونبو الطبع عن سماع نغمة واحدة لا تبديل فيها ولا تغيير منذ بدء القصيدة الى نهايتها .

وربما تكون طويلة جدا ، ولاكذلك هذا النظام البديع الذي يقوم عليه التوشيح من الاسماط والاغصان فانه اوقع في النفس وأنف على السمع . وبه ظهرت براعة أهل الاندلس فانهم جددوا وحافظوا في آن واحد ، جددوا في اسلوب الشعر ونظمه ، وحافظوا على اوزان العروض والقافية فلم يقعوا فيما وقع فيه بعض ادباء العصر من الدعوة الى نبذ القافية جانبا والتحلل من الاوزان والبحور الشعرية المعروفة ، فلما تناقض عملهم مع طريقة الشعر المعروفة دعوا ذلك بالشعر المنثور ..؟

وأشار ابن خلدون الي قريب مما ذكرناه ، من ان اختراع التوشيح كان نتيجة لكثرة الشعر وحب التفنن فيه فقال :- " أما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه اسماطا اسماطا وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا .

ويلتزمون عدد قوافي تلك الاغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة

وكان المخترع لهذا الفن هو مقدم بن معافى شاعر الامير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذه عنه ابن عبد ربه صاحب كتاب " العقد " ، ولكن الذي أحكم صناعته ونهج طريقته هو عبادة

القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية ..

قال ابو بكر بن زهر " كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى
غصن نقى مسك شم
ما اتم ما اوضحا
ما اورق ما انم
لا جرم من لمحا
قد عشقا قد حرم

وكان بعد عبادة ، ابن رافع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، ثم الاعمى التطيلي ويحيى بن بقى وابو بكر ابن باجة الفيلسوف الموسيقار المشهور ، ثم محمد بن ابي الفضل بن شرف وأبو بكر بن زهر الحكيم المشهور وسهل بن مالك وغيرهم كثير ، واشتهر على الخصوص بين ادباء المغرب موشح ابن سهل الاسرائيلي شاعر اشبيلية وأوله :

هل درى ظبي الحمى ان قد حمى
قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق مثلما
لعبت ريح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله لسان الدين ابن الخطيب فقال :

جادك الغيث اذا الغيث همى
يازمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما
في الكرى او خلسة المختلس

وكان ابن الخطيب من المبرزين في صنعة التوشيح شأنه في كل فن من فنون الادب .

ولا يمتاز الشعر الاندلسي من ناحية الصناعة اللفظية فحسب ، بل ان له مميزات من الناحية الموضوعية لا تكاد تخفى على احد ممن تعمق في دراسة الادب العربي على العموم وقارن بين الشعر الاندلسي وغيره من شعر الاقطار العربية الاخرى .. وقد تقدمت الاشارة الى هذه البراعة في الوصف التي تميز بها الاندلسيون خاصة في وصف مظاهر الطبيعة وآثارها البديعة من الرياض والازهار والرياح والامطار والمياه والانهار وما الى ذلك حتى كان شاعرهم في هذا الباب وهو ابو اسحق بن خفاجة فذا في شعراء العربية كلهم لم ينافسه احد منهم في استحقاق لقب شاعر الطبيعة ..ومع ذلك فان موضوعا آخر لم نر من نبه عليه ، ولم ينتبه اليه الشعراء العرب الا في هذا العصر الحديث حين وجدت بواعثه واسبابه ، فصار عندهم من الموضوعات الشعرية الرئيسية ، ألا وهو الشعر الوطني ، فالاندلسيون بماكانوا فيه من عراك دائم مع القوات الاسبانية التي تنتقص بلادهم من اطرافها يوما فيوما وتحاول ان ترمي بهم خارج حدود الجزيرة الايبيرية في كل وقت وحين ، ولم يزالوا كلما خرجوا من بلدة او قرية وفقدوا السلطة على مدينة او ناحية ، يبكون سالف مجدهم وعزهم ويحنون الى معاهد أنسهم ولهوهم ويتفجعون لما نزل بها من الذل والهوان ويستثيرون الهمم لانقاذها واسترجاعها من يد الكفر والطغيان .. وهكذا تكون موضوع جديد في الشعر العربي وهو الشعر الوطني الذي يضرب على وتر الوطنية ويستغل الحماسة الدينية للجهاد والقتال من اجل تحرير البلاد .

وهذه الوطنية لم تكن عند الاندلسيين شعورا عابرا ولا فكرة عارضة ، وانما هي عقيدة ثابتة واحساس متأصل في نفوسهم ، يدلك على ذلك كثير من أقوالهم حتى في غير الشعر الذي نحن بصدده .. فمثلا نجد الفتح بن خاقان عند ترجمته لابن حزم العالم المشهور يفتخر بأنه لم يرحل الى المشرق

وأن نبوغه فاق من رحل اليه ، ونجد اسمعيل بن حبيب في مقدمة كتابه " البديع في وصف الربيع " يباهي بأنه لم يورد فيه شعرا الا لأهل بلده الاندلس ، ويزري بأشعار المشارقة التي ابتذلت فلم تعد النفوس تميل الى سماعها ، ثم يشير الى سبق الاندلسيين للمشارقة في أحسن المعاني مجتلى ، وأطيبها مجتنى ، وهو الباب الذي تضمنه هذا الكتاب (يعني وصف الربيع) فلهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ، مالا يقوم أولئك مقامهم فيه " ونرجع الى ماكنا بسبيله من الشعر الوطني الاندلسي فنورد منه بعض الامثلة ، يقول ابو المطرف بن عميرة في قطعة بليغة :

زدنا على النائين عن أوطانهم
وان اشتركنا في الصبابة والجوى
انا وجدناهم قد استسقوالها
من بعدماشطت بهم عنهاالنوى
ويصدنا عن ذاك في اوطاننا
مع حبها الشرك الذي فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا
لعدونا ، أفيستقيم لها الهوى • • ؟

ويقول ابو عبد الله الفازاري في قطعة اخرى :

الروم تضرب في البلاد وتغنم
والجور يأخذ مابقي والمغرم
والمال يورد كله قشتالة
والجند يسقط والرعية تسلم
وذوو التعين ليس فيهم واحد
الا معين في الفساد مسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها
الله يلطف بالجميع ويرحم

فهاتان القطعتان من أشجى الشعر الوطني وأبلغه ، ولاتقصران عما ينظم منه الان في البلادالعربية التي يتلاعب بها الاستعمار

* * * *

ودون هذا وذاك فان هناك فنونا أخرى من النظم برع فيها الاندلسيون وتفوقوا على غيرهم وان كانت لا تعد من الشعر في حقيقة الامر ، وهذه مثل الانظام العلمية التي تضم أشتات العلوم وقواعدها وتتضمن ابوابها وفوائدها ، ومن اول الموضوعات التي ضبطها بالنظم وقيدها بالوزن التاريخ ، فلابن عبد ربه أرجوزة ذكر فيها غزوات عبد الرحمن الناصر ، بل قيل ان ليحيى الغزال الذي عاش قبل ذلك بكثيرتاريخا للاندلس منظوما •

وكذا لابن الخطيب تاريخ منظوم وهو المعروف " برقم الحلل في تاريخ الدول " ، وفي غير التاريخ نرى منظومة لابن عبد ربه ايضا في علم العروض وهي في غاية السلاسة ، كما نرى لابن مالك الجياني " ألفية " النحو المشهورة ولابن عاصم الغرناطي " تحفة الحكام في علم القضاء والاحكام " وغير هذه المنظومات كثير •

على ان البراعة الحقيقية التي امتاز بها الاندلسيون في هذا الصدد هي الانظام العلمية الملغوزة ، وتختلف طرق الالغاز فيها عندهم ، فبعضها لا تكاد تشعر بأنه نظم علمي ، وانماتقول انه قصيدة شعرية فريدة في حين انه يتضمن اشارات ورموزا الى قواعد علمية معروفة ، وبعضها يكون فيه الرمز واضحا لاخفاء معه وانما فائدته أنه يتضمن المعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة بحيث تشتمل القصيدة ذات الابيات المعدودة على قواعد علم كامل بجميع مسائله وأغراضه ، فالاول كما في قصيدة (غرامي صحيح) لابن فرج الاشبيلي التي ضمنها اصول علم الحديث ولم يصرح بشيء من غرضه

فجاءت كأنها قصيدة غزلية بحيث لوعرضت على عربي خالص لما فهم منها الا ما يفهم من قصائد الشوق والوجد وهذا اولها :-

غرامي صحيح والرجا فيك معضل
ودمعي ووجدي مرسل ومسلسل

والثاني كما في قصيدة الشاطبي في علم القراءات ، وهي مشهورة بين علماء هذا الفن ، وتعد من أمهات الكتب فيه ، وقد بناها على اشارات الحروف الابجدية ، وبذلك توصل الى اختصار هذا العلم الواسع وتضمينه في نظم مهما كثر فانه قليل بالنسبة الى سعة موضوعه

.. وقد ظهر بهذا العرض السريع وهذه الالمامة العجلى ان الشعر الاندلسي لم يتأثر بشيء خارجي عنه ، حتى الاديب المشرقي كان تأثره به في دائرة عامة ، وأما السمات الخاصة به فانما كانت من وحي البيئة والمحيط وهذه العناصر الجديدة التي وجدت فيه مع الايام سواء في اللفظ اوفي المعنى انما كانت ذاتية وتلقائية فلا صحة لما يقال من ان الادب الاندلسي تأثر بالادب الاسباني وأخذ عنه ، كما اثر هو عن حق في هذا الادب وكما أخذ هذا الادبه من غير شك عنه ، فليت شعري اين هو هذا الاثر ؟ وما هذا الذي أخذه الادباء الاندلسيون عن الادباء الاسبان ؟ واي فن جديد هذا الذي اضافه الادب الاندلسي الى فنون الادب العربي باستثناء الموضوع الذي لمحنا اليه وهو الشعر الوطني الذي كان وليد الظروف السياسية الداخلية للبلاد ، وما باله لم يطل على دنيا القصص والتمثيل ، ان كان حقا تأثر بالادب الاسباني ، وليس في هذا الاخير ما يؤخذ أفضل من هذين الفنين ، لو كانا موجودين فيه اذ ذاك ؟

أما القول بأن مرثية ابن عبدون لملوك بني الافطس هي من قبيل الشعر القصصي ، وانها تدل على اقتباس هذا الفن من الاسبان فانما هو قول من يلقي الكلام على عواهنه ولا يعني بتحقيق ما يقول ، ولهذه المناسبة نشير قبل ان نختم هذه الكلمة ، الى ان هناك قصيدة اخرى شبيهة بمرثية ابن عبدون ، ولكن قل من يتنبه لها مع انها في غرض الرثاء مثلها وتضمنت من عبر الدهر مايجعلها

مأساة تاريخية كقصيدة ابن عبدون وهذه هي قصيدة الاعمى التطيلي في رثاء احد فتيان اشبيلية الاجواد وكان يتعهده ويحسن اليه ، فأصبح قتيلا ذات يوم .. وأولها :-

خذا حدثاني عن فل وفلان
لعلي أرى باق على الحدثان

هوامش :

(٢) - يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش .
(٣) - وهو قوله :
ولولا الشعر بالعلماء يزري
لكنت اليوم أشعر من لبيد
(٤) - انظر الرافعي ، ص ٢٨٥ تاريخ اداب العرب ج ٣ .
(٥) - ياقوت في معجم البلدان .
(٦) - المقري في نفح الطيب ص٢١٨
(٧) - الرافعي في تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٧٥
(٨) - دوزي في كتابه الاسلام الاسباني .
(٩) - ابن خلكان
(١٠) - الشقندي في رسالة المفاضلة بين الاندلس والمغرب .
(١١) - ابن بسام الذخيرة ج ل ص ٣٢٦
(١٢) - الشقندي .
(١٣) - نفح الطيب ج٣ ص ٥٨٣
(١٤) - انظر النفح ج٢ ص ٤٨

الجاحظ والمرأة

بقلم: شارل بلا

ان القينا نظرة اجمالية على الادب العربي بأسره شاهدنا ان المرأة لم تزل تحتل فيه محلا رحبا واسعا منذ العهد الذي فيه كان الشاعر الجاهلي يلمح الى صاحبته في نسيب قصيدته ويبكي على الاطلال بعد ظعنها عن ربع رهطها ، ثم شبب عمر بن ابي ربيعة بالغواني والفواجر وجعل الغزل فنا مستقلا عن فنون الشعر ، فحذا حذوه بعض المتقدمين والمتأخرين من الشعراء الامويين والعباسيين وثابر أكثرهم على البكاء على الدمن ان لم يلجؤوا الى المجون والسخف ، ولقد اكتفى جميعهم في اغلب الاحوال بوصف خلق عشيقتهم وصفا مقولبا مصطنعا ولم يجاوزوه الى وصف خلقها ، ثم جمع الرواة أخبار جميل وبثينة وقيس وليلى وكثير وعزة وغيرهم من المتعاشقين فرووا من الاشعار والاخبار ما يكون قصصا غرامية دون أن يطيلوا الكلام في نفسية النساء وما يشعرن به في صميم قلوبهن من العواطف والمشاعر ، وصارت مصارع العشاق – اي العاشقين دون العاشقات – موضوع ضرب من ضروب الادب لا يخلو من أهمية بالنسبة الى قضية النساء غير ان أبطاله معروفون مشهورون ومعشوقاتهم معروفات مسميات فلا يمكن ان يستقرأ من أخبارهن معطيات عامة ونتائج شاملة فيما يخص النساء على وجه الاجمال .

كذلك في المجموعات التي لم يتورع بعض الفقهاء مثل ابن قيم الجوزية من تأليفها فيما يسمونه اخبار النساء ،فلا غروا أن مؤلفاتهم مشتملة على نوادر وحكايات تدل في الغالب على ان الجنس اللطيف شيء جميل يسبب الحب والعشق ويأتي باللذة وربما يحدث في قلوب الجنس الخشن أضرارا جسيمة لأنه مجبول على الكيد والمكر ، مطبوع على الخيانة والغدر ، فلا يستحق أن يعتني بتغيير حالته الشخصية وترقية منزلته الاجتماعية

أما المؤلفات التي فيها يصف أصحابها قانون الجمال ويوردون شروحا لغوية تسببها كثرة الالفاظ العربية الدالة على اعضاء الجسد النسوي ففيها من المعلومات العامة ما يساعد على الالمام بهذا القانون المتغير ويتطوره على مر الزمان ، فيدنو من هذا الضرب من المؤلفات ضرب آخر يتناول الامور الجنسية بشكل قد تقشعر له جلود الفراء ، ومن غريب الاتفاق ان هذا النوع من أنواع الادب تخصص فيه بعض الادباء التونسيين ، والحق ان مؤلفات الجاحظ لا تخلو من تفاصيل شنيعة ولا سيما "مفاخرة الجواري والغلمان " حيث يذكر في تصدير الكتاب بعض الالفاظ الفاحشة وتقزز من يظهر النسك والتقشف وانقباضه اذا سمعها ثم يقول : " وانما وضعت هذه الالفاظ ليستعملها أهل اللغة ، ولو كان الرأي ألا يلفظ بها ما كان لأول كونها معنى ، ولكان في التحريم والصون للغة العرب ان ترفع هذه الاسماء والالفاظ منها ، وقد اصاب كل الصواب الذي قال : لكل مقام مقال "(1) ولهيبة المقام الذي نحن فيه سأمتنع عن الاسهاب في هذه الامور وانما اقتصر على التلميح اليها .

ومع ذلك فربما يشير اصحاب الكتب المار ذكرها الى ان للنساء خلالا محمودة لكي لا يتوهم القارئ انهن ذوات أخلاق سيئة محضا لا يتخللها محاسن موصوفة ، وفي هذا الصدد فلا ننس كتب التراجم واكثرها شأنا تراجم الصحابة . فيوجد فيها جزء خاص بالنساء اللواتي صحبن الرسول او أدركنه واسلمن ، وكذلك تراجم النساك والاولياء ففيها أيضا ذكر للناسكات والصالحات ، وسأخص بالذكر هنا ممن سماهن الجاحظ في " البيان والتبيين " (2) رابعة العدوية وليلى الناعطية الغالية التي (3) " رقعت قميصها حتى صار القميص الرقاع وذهب القميص الاول ورفت كساءها حتى صارت لا تلبس الا الرفو وذهب جميع الكساء " ، ولا تخلو أيضا تواريخ المدن والبلدان من تراجم المسلمات اللواتي اشتهرن في ميدان من الميادين ، ويعلم جميع الناس ان الاديب التونسي الذي سوف نحتفل بالذكرى المئوية لميلاده – العلامة حسن حسني عبد الوهاب – افرد لنساء

بلاده كتابا رائعا وسمه بـ " شهيرات التونسيات " .

فلا شك اذن أن كثيرا من النساء قمن في معظم العصور والاقطار الاسلامية بدور اجتماعي وسياسي وأدبي وفني مرموق ممتاز ، منهن أزواج الخلفاء والاشراف ومنهن الشواعر والمغنيات حتى خصص لهن الادباء كتب تراجم جمعوا فيها أخبارهن وأشعارهن ومآثرهن وغير ذلك مما يتعلق بأحوالهن ، ولعل أصدق مرآة لمنزلة المرأة من المجتمع الاسلامي ، " كتاب الاغاني " غير أن النساء اللاتي يرد ذكرهن في المؤلفات المومأ اليها معلومات شهيرات فلا يجوز ان يعمم ما تحتوي عليه من تفاصيل شخصية ويطلق على الجنس اللطيف بأجمعه .

وعساكم تفكرون الان في الكتب التي يتعرض فيها أصحابها لمسألة الحب فيصفون نشوءه وأطواره وموته ، ولايخفى على أحد أن أحسن مثال لذلك النوع من المؤلفات " طوق الحمامة " . ثم لم يترك الفلاسفة ان يحللوا العشق ،ولعلكم تتذكرون الندوة التي أقامها يحيى بن خالد البرمكي للبحث عن هذه الظاهرة العجيبة فدعا اليها لفيفا من الفقهاء والمفكرين والمتكلمين من أهل السنة والشيعة والاعتزال والارجاء والذمة ، وقد احتفظ المسعودي (٤) بما دار فيها من المذاكرة والمناقشة ، فيتضح مما ورد في " المروج " من الاقوال في هذا المعنى ان المشاركين في الندوة عرفوا العشق دون أن يفرقوا بين الرجال والنساء ، وعلى كل حال يمكننا ان نستنتج من المؤلفات الخاصة بالعشق ان أصحابها ، وهم رجال ، لم يحاولوا ان يبينوا خاصيات النساء في امر من الامور وانما يبدو منها بصفة عامة ان الرجال عاشقون والنساء معشوقات غير عاشقات ، او بعبارة اخرى يستخرج من كل ما مر ان الرجال محافظون يرضون بمنزلة المرأة المتخلفة ولا يهمهم تغييرها وتطويرها .

فيكاد يجمع مؤرخوا الادب العربي الحديث على ان رائد الحركة الرامية الى تحرير المرأة من قيودها التقليدية هو الكاتب المصري قاسم أمين مع ان شارل فيال (٥) قد اكتشف في " تخليص الابريز في تلخيص باريز " ما يجعل رفاعة الطهطاوي على رأس الرواد في هذا الباب ومهما كان من امر لقد اتسعت الحركة فأفرد الكتاب رسائل وقصصا على القضية النسائية وأظهروا ما تواجهه المرأة المسلمة من المصاعب واكثروا من ذكر ما تستحقه من حرية واستقلال وألحوا خاصة على مسألة الحجاب والسفور وغير ذلك مما يعرقل مواهبها وانشراح صدرها .

ومن العجيب ان كاتبة فرنسية كانت تنصر دعوة النساء (٥) زعمت منذ اكثر من نصف قرن ان اول من ناصر من انصارها في الاسلام هو واضع " ألف ليلة وليلة " لأن شهرزاد عالجت شهريار فأبرأته من دائه المدمي ، وانما فاتها ان نواة الف ليلة وليلة ، هندية الاصل وان اسم شهرزاد مأخوذ من الميثولوجيا الايرانية فلايمت الى الاسلام بسبب ، وفاتها ايضا ان القصاص الذين أضافوا الى تلك النواة حكايات جديدة لم يظهروا نحو المرأة عواطف مغايرة لما كان المعتاد في الحضارة الاسلامية بل بالغوا احيانا مبالغة شنيعة لست بحاجة الى اطالة الكلام في سوء تأثيرها .

فبالعكس يحق لنا أن ندعي ان اول كتاب اعتنى بالنساء واكترث بكرامتهن وسعادتهن هو القرآن نفسه ، الا ان الكتب المنزلة كالدساتير الحديثة تمثل مثلا أعلى قلما يبلغه الانسان العادي ، مع ان بعض الايات تبرر موقف الرجال من النساء ، منها (٧) : "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث " ، فوضع القرآن أشياء مختلفة من أمور الدنيا والنساء والبنين على صعيد واحد ، وان ذكرت هذه الاية فلأن الجاحظ نفسه فسرها فقال (٨) ان الله " قدم ذكر النساء.. على قدر تقدمهن في قلوبهم " ، فاستدل بها على تقدم المرأة في قلب الرجل وسوف نرى انه التمس دلائل اخرى لا على منزلتها من فؤاده فحسب بل على تفوقها عليه في شتى الاحوال .

وكما انني زعمت مرارا ان ابا عثمان كان من الاوائل اي من الرواد لأنه اول من جمع بشكل منتظم عناصر الثقافة العربية الاصيلة ونفخ الروح الموسوعية في أجسام الادباء وحاول ان يوسع مدى المعارف بالعيان والاختبار ، وبالمشاهدة والاعتبار ، وهو اول من رفع الادب التقليدي الى مستوى الابداع والتفكير الفلسفي وأدخل وجها من وجوه الفن في علم التأريخ والجغرافيه ، الى آخر ما له من الفضائل والمآثر ، فكذلك يجدربي أن أدعي له الاسبقية في الدفاع عن المرأة لانه اول من اهتم بحاجاتها ولذاتها ومؤهلاتها ونفسيتها ، ووضعها او كاد يضعها والرجل في مرتبة واحدة ، وان اتخذ منها في ظاهر الامر موقفين متفاوتين حسب مقتضيات الظروف وضرورات

التأليف .

فانه لراو على حدقوله في وصف نفسه ، وانما هو من جهة أخرى كاتب مبدع مبتكر طريف ، وذلك هو السبب الذي من أجله ترك لنا آثارا يختلف مضمونها وطريقتها احتلافاملموسا ، فلنبدأ بالصنف الاول من مصنفاته ولنتصفح مجموعاته قبل أن نتصدى لرسائله التي حررها عفويا دون أن يعتمد على الرواية ويستند الى النقل .

فتوجب عليه طبيعة هذا الضرب من المؤلفات رواية أقوال من تقدمه - من غير ان يضطر دائما الى التعليق على معانيها وابداء رأيه في قيمتها وخاصة اذا روى الاحاديث النبوية والاقوال المأثورة ، فنراه يروي مثلا ان الرسول قال (٩) : " ماتركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء " ويشير في موطن آخر (١٠) الى الحديث المشهور : " قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين .. وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء " ثم سئل النبي عن سبب ذلك فقال : " يكفرن العشير ويكفرن الاحسان ، ولو أحسنت الى احداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط " ، ولقد اورد الجاحظ خطبة الوداع (١١) التي تتعلق بعض جملها بحقوق الرجال على النساء ان سرن سيرة سيئة وبحقوقهن عليهم من الرزق والكسوة فلم يبد رأيه في هذه الخطبة الخطيرة كما انه لم يعلق على قول عمر ابن الخطاب (١٢) :"واكثروا لهن من قول "لا" فان قول " نعم " يضريهن على المسألة "، ولا على قول بعض الحكماء (١٣) : " لا تستشيروا معلما ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء ، " ولا على قول أشد مما سبق وأعنف (١٤) : " لاتدع ام صبيك تضربه فانه أعقل منها وان كانت آسن منه " ، فيبدو ان اباعثمان ربما يعبر عن استنكاره بالسكوت ، فاذا استحسن قولا شرحه ولو بايجاز ، فروى مثلا خبر أم تأبط شرا وأنها من عقلاء نساء العرب وأضاف قائلا (١٥) : " اذا كان (كذا) نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم فما ظنك بالمرأة منهم اذا كانت مقدمة فيهم ".

فلو اكتفينا بالاعتماد على الروايات السابقة لتبين لنا موقف ابي عثمان من قضية المرأة اعتبرناه لامحالة مقلدا لا يختلف عمن سواه ، ولكنه وضع كتابا وسمه بـ " فصل مابين الرجال والنساء وفرق ما بين الذكور والاناث "، وبين فيه " في اي موضع يغلبن ويفضلن وفي اي موضع يكن المغلوبات والمفضولات ونصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب وأي عمل هو بهن أليق ، وأي صناعة هن فيها أبلغ " .

هكذا عرف الجاحظ كتابه هذا ولخصه في تصدير " الحيوان " ومن سوء الحظ أكل عليه الدهروشرب فلم يبق منه الا فقرات يسيرة في رسالة عنوانها " النساء " أو " العشق والنساء " قد نشرت على هامش " الكامل " وفي طبعات الساسي والسندوبي وهارون ، ومما زاد الامر صعوبة وتعقدا أن ابن النديم قال في " الفهرست " (١٦) ان الجاحظ "أضاف الى كتاب الحيوان كتابا آخر سماه كتاب النساء وهوالفرق فيما بين الذكر والانثى ، " فيغلب على الظن انه كان ينوي انشاء هذا الكتاب عندما كتب مقدمة " الحيوان " ولم يكن حينذاك قد حقق مشروعه ، ثم حال المرض بينه وبين انجاز وعده فلم يتسن له ان يقوم بعمل يرضيه تمام الارضاء اذ قال في الرسالة المذكورة (١٧) انه كان يريد ان يخرج كتابا تاما ... حتى يحصل ما لكل جنس من الخصال المحمودة والمذمومة " حتى يتبين للقارىء " نقصان المفضول عن رجحان الفاضل " ولكن " منع من ذلك فرط الكبوة وافراط العلة وضعف المنة وانحلال القوة " ، " فاجتنب ان يقصد من جميع ذلك الى فرق ما بين الرجل والمرأة "، واقتصر " منه على مالايبلغ بالمستمع الى السآمة " .

فيتضح مما سبق انه لا يمكننا الان ان نلم بآراء الجاحظ الماما ، فيضطرنا الحال الى الاكتفاء بما لدينا من النصوص والاستذلال بظاهر الامر على باطنه ، فاجمع فيما يلي ماتيسر لي من أقواله في هذا الكتاب وأدعه يتكلم لأن لفظة واضح ومعناه بين يستغني عن شرح وايضاح .

كان من الطبيعي ان يتعرض اولا لمنزلة المرأة من قلب الرجل ، فزيادة على ماورويته من تفسيره لآية قرآنية ، قال (١٨) : " وعامة اكتساب الرجال وانفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون انما هو مصروف الى النساء والاسباب المتعلقة بالنساء ، ولو لم يكن الا التنمص (اي نتف الشعر)والتطيب والتطوس (اي التزين) والتخضب والذي يعد لها (كذا) من الطيب والصبغ والحلي والكساء والفرش والانية لكان في ذلك ما كفى ، ولو لم يكن له الا الاهتمام بحفظها وحراستها وخوفالعار من جنايتها والجناية عليها لكان في ذلك المؤونة العظيمة والمشقة الشديدة ."

فلم يكتف بذلك بل توخى غاية أبعد وطلب دلائل اخرى فرأي (١٩) ، ان

المرأة " أرفع حالا من الرجال في أمور منها أنها التي تخطب وتراد وتعشق وتطلب وهي التي تفدي وتحمى ، قال عنبسة بن سعيد للحجاج بن يوسف :

أيفدي الامير أهله ؟ - قال : والله ان تعدونني الا شيطانا ، والله لربما رأيتني أقبل رجل احداهن ." ومما يدل على علو مرتبتها في قلب الرجل ان " الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه وبالمشي الى بيت الله وبصدقة ماله وعتق رقيقه فيسهل ذلك عليه ولا يأنف منه ، فان استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه وطار الغضب في دماغه وتمنع وعصى وغضب وأبى ، وان كان المحلف سلطانا مهيبا ولم يكن يحبها ولا يستكثر منها وكانت نفسها قبيحة المنظر دقيقة الحسب خفيفة الصداق قليلة النشب ، ليس ذلك الا لما قد عظم الله من شأن الزوجات في صدر الازواج ".

ومما يدل أيضاعلى فضل النساء ان الله صانها فجعل (٢٠) " في جميع الاحكام شاهدين ، منها الاشراك بالله وقتل النفس التي حرم الله (قتلها) ، وجعل الشهادة على المرأة اذا رميت بالزنا أربعة مجتمعين غير مفترقين في موضع يشهدون انهم رأوا مثل الميل في المكحلة وهذا شيء عسير " ، غير ان اقوى الحجج (٢١) لتفوق المرأة " ان الله تعالى خلق من المرأة ولدا من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولدا من غير انثى "فخص بالاية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل لما (٢٢) خلق المسيح في بطن مريم منغير ذكر ".

هذا ، ولما بحث الجاحظ عن أسلحة الحيوان لاحظ ان سلاح المرأة (٢٣) الصراخ والولولة التماسا للرحمة واستجلابا للغياث من حماتهاوكفاتها " ولكنه يعلم ان انفذ سلاحها لاصطياد الرجال حسنها وجمالها ، فلذلك لا يتورع عن وصف قانون الجمال المتغير وتعريف أذواق معاصريه في هذا المعنى فيقول (٢٤) :

" رأيت اكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الامر يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة ولا بد من جودة القد ومن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر ولا بد من ان تكونكاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة ، وانما يريدون بقولهم مجدولة جودة القصب وقلة الاسترخاء وان تكون سليمة من الزوائد والفضول ، ولذلك قالوا خمصانة وسيفانة وكأنها جان وكأنها جدل عنان وكأنها قضيب خيزران ، والتثني في مشيتها أحسن ما فيها ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة وذات الفضول والزوائد ، على ان النحافة في المجدولة أعم وهي بهذا المعنى أعرف ، ولم أر المجدولة تحبب الى أصحاب السمان والضخام والى اصحاب الممشوقات والقضاف كما تحبب هذه الاصناف الى أصحاب المجدولات (٢٥) : وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : اعلاها قضيب وأسفلها كثيب " .

وكرر الجاحظ وصف الجمال في " مفاخرة الجواري والغلمان " (٢٦) ، وخاصة في كتاب " القيان " (٢٧) وحاول ايضا في هذه التحيفة اليتيمة ان يحدد العشق (٢٨) الذي كان اهتمام المفكرين مصروفا اليه منذ امد طويل حتى أقام يحيى بن خالد البرمكي الندوة التي أشرت اليها آنفا (٢٩) ، فلم يحضرها الجاحظ ولكنه توسع في الموضوع فقال (٣٠) : " هو داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة كما ينال الروح الضعف في البطش والوهن في المرء ينهكه وداء العشق وعمومه في جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم ، وصعوبة دوائه تأتي من قبل اختلاف علله وأنه يتركب من وجوه شتى ، كالحمى التي تعرض مركبة من البرد والبلغم (. . .) فالعشق يتركب من الحب والهوى والمشاكلة والالف ، وله ابتداء في المصاعدة ووقوف على غاية وهبوط في التوليد الى غاية الانحلال " .

فلامر ما تناول ابو عثمان موضوع العشق في كتاب " القيان " فذلك ان القينة أقدر على احداثه من المهيرة ، وبما أنني اقتبست من هذا الكتاب الفقرة السابقة رأيت من اللائق المناسب منه أيضا وصف القينة ، فلقد اتفق لي ان لاحظت ان الجاحظ لم يتسن له ان يستخرج من نوادر البخلاء شخصا نمطيانموذجيا تتبلور فيه عناصر البخل وخصال الاشحاء والحث على فرق ما بينه وبين بديع الزمان اذ اخترع صاحب " المقامات " شخصا وهميايمثل كافة الخصائص التياراد تشخيصها ، فيجب علي ان اصحح هذا الحكم لأن أبا عثمان استطاع هو ايضا ان يجمع في شخص واحد خلال القيان بأسرها وان لم يختر للقينة التي يصفها اسما من الاسماء فقال (٣١) : " ان القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناصح في ودها لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشر للمتربطين (٣٢) ليقتحموا في انشوطتها ، فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء ولهجت باقتراحاته ونشطت للشرب

عند شربه وأظهرت الشوق الى طول مكثه والصبابة لسرعة عودته والحزن لفراقه فاذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه وأنه قد تعقل في الشرك تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه وأوهمته ان الذي بها اكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو اليه هواه وتقسم له. أنها مدت الدواة بدمعها ولبت السحاءة بريقها وأنه شجبها (٣٣)، وشجوها في فكرتها وضميرها في ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ولاتوثر احدا على هواه ولا تنوي انحرافا عنه ولا تريده لما له بل لنفسه ، ثم جعلت الكتاب في سدس طومار وختمته بزعفران وشدته بقطعة زير وأظهرت ستره (٣٤) على مواليها ليكون المغرور اوثق بها وألحت في اقتضاء جوابه ، فان أجيبت عنه ادعت انها قد صيرت الجواب سلوتها واقامت الكتاب مقام رؤيته (...) ثم تجنت عليه الذنوب وتغايرت على أهله وحمته النظر الى صواحباتها وسقته أنصاف اقداحها وجمشته بعضوض تفاحها وتحية (٣٥) من ريحانها وزودته عند انصرافه خصلة من شعرها وقطعة من مرطها وشظية من مضرابها وأهدت اليه في النيروز تكة وسكرا وفي المهرجان خاتما وتفاحة ونقشت على خاتمها اسمه وأبدت عند العثرة اسمه (...) ثم أخبرته انها لا تنام شوقا اليه ولا تتهنأ بالطعام وجدا به و لا تمل ، اذا غاب الدموع فيه ولاذكرته الا تنغصت (٣٦) و لا هتفتباسمه الا ارتاعت وانها قد جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه (..) وربما قادها التمويه (٣٧) الى التصحيح وربما شاركت صاحبها في البلوى حتى تأتي الى بيته فتمكنه من القبلة فما فوقها وتفرشه نفسها ان استحل ذلك منها (...) واكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة في استنطاف مايحويه المربوط والانتقال عنه ، وربما اجتمع عندها من موبوطيها ثلاثة اواربعة، على انهم يتحامون (٣٨) من الاجتماع ويتغايرون عند الالتقاء ، فتبكي لواحد بعين وتضحك للاخر بالاخرى وتغمز هذا بذاك وتعطي واحدا سرها والاخر علانيتها وتوهمه (٤٠) انها له دون الاخر وان الذي تظهر خلاف ضميرها ، وتكتب اليهم (٤١) ، عند الانصراف كتبا على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرمتها على الخلوة به دونهم .

" فلو لم يكن لابليس شرك يقتل به ولا علم يدعو اليه ولا فتنة يستهوي بها الا القيان لكفاه ، وليس هذا بذم لهن ولكنه من فرط المدح وقد جاء في الاثر : "خير نسائكم السواحر الخلابات (٤٢) .

لم أتمالك من قراءة هذه الصفحة البارعة المبنى والمعنى لأني ألتذ بها وأشعر بلذة متجددة كلما أقرؤها ، فلو لم يكن أبو عثمان كتب غير هذا النص لكفى على دقة عيانة شاهدا وعلى عبقريته دليلا ولتخليده سببا ، وان اردتم ان تقيسوا طول باعه وسعة صدره فعليكم بمطالعة الفقرات التي أفردها الوشاء لوصف القيان وذمهن في كتابه الموسوم " الموشى " .

فيبدو من كل ذلك ان الجاحظ كان من البصراء بأمر النساء وخاصة بالقيان، ويغلب على الظن انه عاشرهن واختلف الى دورهن واختبرهن مباشرة او بصفة غير مباشرة ، فلعل ذلك دعاه الى تفضيل المملوكات على المهيرات والى ايثار الاماء على الحرائر ، فأظن انه لم يتزوج قط بل اقتصر على اشتراء جارية او جوار وقد ابدى رأيه في هذا المعنى فقال (٤٣) : " قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار اكثر الاماء أحظى عند الرجال من اكثر المهيرات ان الرجل قبل ان يملك الامة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فأقبل (٤٤) على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة والحرة انما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيرا والرجال بالنساء ابصر ، وانما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، واما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال ، فانها لا تعرف ذلك ، وقد تحسن المرأة ان تقول : " كأن أنفها سيف (٤٥) وكأن عينها عين غزال " الى آخر الوصف التقليدي .

يجدر بنا ان نفترض انه اراد بالخصائص التي تقع بموافقة الرجال الخصائص الاخلاقية ولكنه أمسك عن ذكرها وتعدادها ، فبيد انه عدد بشيء من التهكم صفات القيان في جمل متتابعة وفقرات متواصلة ختمها بالمدح المفرط، لم يفرد لأخلاق عامة النساء نصا متماسك الاجزاء بل لمح الى بعضها هنا وهناك ولا سيما في فصل الخصيان كأنه وجد بين الجنسين مشابهة تسترعي الانتباه ، فمن ذلك انه شاهد ان النساء (٤٦) يعرض لهن العبث واللعب بالطير وما شابه ذلك وسرعة الغضب والرضا وحب النميمة وضيق الصدر بما أودعن من السر والبصر بالرفع والكنس والرش والطرح والبسط والصبر على الخدمة وايثار المخنش (٤٦) ، اي الشراب السريع الاسكار وحب الصرف من المدام ، وتقبيل افواه السنانير (٤٨)

والاعجاب (٤٩) بصوت قصع القمل على الاظفار .

وبما أنني أشرت الى الخصيان جاز ان أتعرض هنا للمسائل الجنسية التي يتناولها الجاحظ في الفصل المذكور بشكل لايبلغ من الفحش ما تبلغه "مفاخرة الجواري والغلمان" والكتب الخاصة بهذه الامور التي قد يزبئر شعر القراء مما تتضمنه من التفاصيل البذيئة .

فلقد علمني الجاحظ (٥٠) ان الخصي يقدر على اتخاذ الجواري وانه يجتمع فيه أمنية المرأة لأنه مأمون الالقاح ، " فتقيم المرأة معه وهي آمنة العار الاكبر فهذا أشد لتوفير لذتها وشهوتها" وعلاوة على ذلك فانها تحتقر الخصيان ولذلك تذهب من قلبها الهيبة" وتعظيم البعول والتصنع لذوي الاقدار باجتلاب الحياء وتكلف الخجل " تدل هذه الملاحظات على انه اهتم بزاوية سرية من حساسية النساء قلما يذكرها الرجال في نصوص جدية ، وقال ايضا (٥١) : " المرأة سليمة الدين والعرض والقلب ما لم تهجس في صدرها الخواطر ولم تتوهم حالات اللذة وتحرك الشهوة ، فأما اذا وقع ذلك فعزمها أضعف العزم وعزمها على ركوب الهوى أقوى العزم " ، وتنقسم عنده احوال النساء الداعية الى ارتكاب الذنوب والمعاصي الى ثلاثة اقسام :" اما امرأة قد مات زوجها فتحريك (٥٢)طباعها خطار بأمانتها وعفافها ، والمغيبة في مثل هذا المعنى ، والثالثة امرأة قد طال لبثها مع زوجها فقد ذهب الاستطراف وماتت الشهوة ، واذا رأت ذلك تحرك منها كل ساكن وذكرت ما كانت عنه بمندوحة ، ثم تشترك الافكار في خاطر الجاحظ ، فينتقل الى الاشارة على اهل الغريرات الابكار ، بأن يأخذوهن بالقراءة في المصحف ويحتالوا لهن حتى يصرن الى حال التشييخ (اي التخلق بأخلاق الشيخوخة) (والجبن والكزازة ، (اي البخل) احوج ، وحتى لا يسمعن من احاديث الباه والغزل قليلا ولا كثيرا وهنالك شيء من التناقض بين الرأي السابق وما ورد في موطن آخر (٥٣) من القول بأنه ، " لا تزال الجارية من لدن ادراكها وبلوغها وحركة شهوتها على شبيه بمقدار واحد من ضعف الارادة وكذلك عامتهن ، فاذا اكتهلن وبلغت المرأة حد النصف فعند ذلك يقوى عليها سلطان الشهوة والحرص على الباه ، فانما تهيج الكهلة عند سكون هيج الكهل وعند ادبار شهوته وكلال حده " .

ففي كل ذلك نظر كما يقول الفقهاء

ومما يثير اهتمام من ينصر دعوة النساء في وقتنا الحاضر قضية الخفاض ، فلم يخل الجاحظ من ان طرق هذا الباب وعبر فيه عن رأي متوسط معتدل ، فبعد ان قال(٥٤) ان الختان راجع في النساء والرجال الى عهد ابراهيم وهاجر زعم ان" البظراء تجد من اللذة مالاتجده المختونة ، فان كانت مستأصلة مستوعبة كان على قدر ذلك ، وأصل الختان النساء لم يحاول به الحسن دون التماس نقصان الشهوة فيكون العفاف عليهن مقصورا " ، ثم روى خبرا عن قاض " أحصى في قرية النساء المختونات والمعبرات فوجد اكثر العفائف مستوعبات واكثر الفواجر معبرات " ولما لم يزل يميل الى الاعتدال في كل شيء آثر الاشمام على الاستيعاب معتمدا على حديث الرسول حيث قال للخاتنة : " يا ام عطية أشميه ولا تنهكيه ، ففسره بقوله : " أراد ان ينقص من شهوتها بقدر ما يردها الى الاعتدال ، فان شهوتها اذا قلت ذهب التمتع ونقص حب الازواج ، وحب الزوج قيد دون الفجور " رغما عن تحفظ ابي عثمان وعدم تطرفه في هذا الباب لا يجوز لمن يحتج للخفاض ، ويستحسنه ان يدلي برأيه لكي يحافظ على عادة شنيعة مضرة أشد الاضرار .

وهناك مسألة اخرى لها من الاهمية في نظر معاصرينا مالا لايستهان به بالرغم مما نشاهده من التقدم في هذا الميدان، الا وهي قضية الحجاب والسفور ، فللجاحظ كتاب سماه " الحجاب " وانما تصدى فيه لاحتجاب الولاة والامراء فحسب ، غير انه تناول هذا الموضوع في كتاب " القيان" (٥٥) واتى بحجج قاطعة على حجاب النساء قائلا : " لم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب عن ازواج النبي صلعم خاصة " ، " ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال الحديث ولم يكن النظر الى بعضهم الى بعض عارا في الجاهلية ولا حراما في الاسلام ، والدليل (٥٦) على أن النظر الى النساء كلهن ليس بحرام ان المرأة المعنسة تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك ، فلو كان حراما وهي شابة لم يحل اذا عنست " ودليل آخر (٥٧)

" أن النساء الى اليوم من بنات الخلفاء وأمهاتهن فمن دونهن يطفن بالبيت مكشفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل الحج الا به " .

يحل اذا السفور ولا يحرم اختلاط النساء بالرجال في الحياة الاجتماعية فضلا عن الحياة العائلية ولكني لم أجد في مؤلفاته مما يدل على ان اعضاء العائلة كانوا يجتمعون مثلا لتناول الطعام الا

نادرا (٥٨) جاء فيها ان رجلا له امرأة وابنتان أنزل اعرابيا في بيته فجلسوا جميعا وقدمت المرأة دجاجات مشوية فجعل الضيف يقسمها بينهم قسما مختلفة مكنته كل قسمة منها من أخذ النصيب الاوفر ، فيستنتج من ذلك ان الناس المذكورين كانوا يأكلون معا وان العامة لا تفرق بين الرجال والنساء وربما تجلس الضيوف على موائدها ، غير ان النادرة المستند اليها لاستخراج هذه النتيجة موجودة في الفولكلور الكوني ولعلها دخيلة فلا يسوغ الادلاء بها .

وبما أنني لمحت الى الحياة العائلية ينبغي ان أعود الى كتاب ابي عثمان في (فصل ما بين الرجال والنساء) الذي وعد ان يذكر فيه نصيب المرأة والرجل في الولد ، فيظهر ان قوله في هذا المعنى سقط من الاصل ، الا انه أشار عدة مرات الى نتاج الاجناس المتباعدة (٥٩) وله ملاحظة لا تخلو من أهمية حيث يقول (٦٠) : " اعلم ان لا يكون الحظ الا في نتاج شكلين متباينين فالتقاؤهما هو الاكسير المؤدي الى الخلاص وهو أن تزاوج بين هندية وخراساني فانها لا تلد الا الذهب الابريز "

ووعد أيضا في تعريف كتاب " فصل ما بين الرجال والنساء " أن يتساءل عن " العمل الذي هوبالنساء أليق " ، والصناعة التي هن فيها أبلغ " ، فمن سوء الحظ لقد ضاع هذا القسم من الكتاب، ان لم يهمله تماما - ومن المحتمل انه ذكر الاعمال التي تقوم بها المرأة في منزلها والمهن التي تمارسها بعضهن كالقوابل والحواضن والنوائح وغيرهن ، الا ان " الصناعة " التي يراها ملائمة للنساء هي الغناء (٦١) : " كم بين ان تسمع (٦٢) الغناء من فم تشتهي ان تقبله وبين أن تسمعه من فم تشتهي ان تصرف وجهك عنه ، وعلى أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح ، وبعد فأيما أحسن وأملح وأشهى وأغنج : أن يغنيك فحل ملتف اللحية كث العارضين أو شيخ منخلع الاسنان متغضن (٦٣) الوجه ثم يغنيك اذا هوتغنى بشعر ووقار بن زهير :

رأيت زهيرا تحت كلكل خالد
فأقبلت اسعى كالعجول ابادر

أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس او كأنها ياسمينة او كأنها خرطت من ياقوتة او من فضة مجلوة بشعر عكاشة ابن محصن :

من كف جارية كأن بنانها
من فضة قد طرفت عنابا ؟

فأما الغناء المطرب في الشعر العزل فانما ذلك من حقوق النساء وانما ينبغي ان تغني بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نطقت تلك الاشعار وبهن شبب الرجال ومن أجلهن تكلفوا القول في التشبيب (٦٥) .

يتضح مما تقدم أن الجاحظ لم يستطع بالرغم من طرافته وعبقريته وحرية تفكيره ان يخالف التقاليد الثابتة والعقائد الراسخة مخالفة تامة. وانما حاول أن ينصف النساء فلم يرجح كفة الميزان لأحد الجنسين الا بعد ان قاس العلل ووزن الحجج ، ومع ذلك لم يبلغه نتيجة حاسمة بل عبر عن آرائه الصائبة بتحفظ واحتياط فقال (٦٦) : " ولسنا نقول ان النساء فوق الرجال اودونهم بطبقة او طبقتين او بأكثر ولكنا رأينا ناسا يزدرون (٦٧) عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن " ، وذلك هو السبب الذي من أجله اعتزم على تأليف الكتاب الذي اقتبست منه كثيرا من النقول السابقة ولكنه مع حبه للنساء بل للمرأة (بحرف التاج) بصفة عامة ونزعته الواضحة الى الانصاف والاعتدال لا يمكنه ان يسوي بين الرجال والنساء تسوية كاملة وانما يستنتج من ملاحظاته (٦٨) " أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء اكثر وأظهر " ويضيف الى حكمه النهائي كلمة فيها عبرة لمن اعتبر : " ليس ينبغي لمن عظم حقوق الاباء ان يصغر حقوق الامهات وكذلك الاخوة والاخوات والبنون والبنات ، وأنا وان كنت أرى حق هذا أعظم فان هذه أرحم"

شارل بلا

كلماتٌ للحبّ والوطن

شعر: محمد المهدي بن نصيب

(1)

أطعميني أسيّدةَ الوعْدِ ...
مِنْ تمْرِ نخلةِ حُبِّكِ
من ثمرّاتِ المحبّة ارغفَةً
واغزلي منْ خيوطِ الضياءِ الكِساءْ
ومن ألقِ العينِ قارورةً من ضياءْ
وامنحيني من دفْءِ كفيكِ شمسا
أنا عاشقاً جئتُ
جِئتُكِ جوْعانَ حينَ توغّلتُ في
غابةِ الحُزْنِ أبحثُ عنْكِ
وحافيةً قدَمِي
والرّغيفُ امان
وهذا اللحافِ عَراءْ
أيا زَهْرَةَ في حدائقِ شعري
فهاتِ يديْكِ ، وشُدّي على الكفَ
كفّي تشقّقَ حينَ أعانق فأسي
★ ★ ★

(2)

ألبسيني أسيّدة الوعد ، ثوبا
فقدْ ملّ جسمي لباسيَ ،
(زرقاءُ .. زرقاءُ ألبسُهَا) (1)
سأنْشدُ أغنيتي – الآنْ –
أغنّي لطيفِ الجدائل .. والعيْنِ
أرْوي لكِ ذكرياتي ..
وأحكي لك عن حياتِي :

(هَا اخدمنَا الشانْطي وشنْطنَا
تركنَا مصالحْ بيتْنا وفرّطنا
الشانْطي انْطعنْالَهْ
وَالفقْر موس الذّبحْ للرّجالَهْ
كلْ يُوم نصبحْ متْحنّي ع البالَهْ
ولوْ كانْ قُلْنَا م التّعبْ موّتْنا
ينْزرْ عليّ الشافْ زي اعْيالَهْ (2)
ويقول : موش منصاح خايَنْ وطنَهْ)

---

(1) من شعر المختار اللغماني .

(2) مقطع للشاعر الشعبى بلقاسم بن نصير .

(3)

هيَ الشمسُ تصبحُ مصلوبةً في فيافي الضياعْ
وباهتةَ الضوءِ يا ألقا قدْ خبا في عيونِ الجياعْ
وتُصبحُ موشومةَ في ذراعِ الحنينْ
كدمعِ الوداعْ .
فكيف يغيب ضياك !؟
ويخبو بأفقِ الزمانِ الشعاعْ !؟

(4)

ايتها الريحُ ...
والرّمال دماءْ
والعصفُ صوتُ الجماهيرِ ..
زمجرةُ الفقراءْ
دويّ الأعاصيرِ
آتيةٌ كالهديرِ
وآتيـة كالسيولْ
وآتيـة كالرعودْ
وآتيـة كالوعيدْ
فضاجِعي النيلَ كي تلدي – يا ضيائي – الضياءْ

(5)

أنت لي وطن للأماني
أنت لي هسهساتُ الأغاني
وأهزج في موكب الحبّ أغنيتي ...

فتركض عبر الشرايين احصنة العشق يا وطني
وأزرع في حقلِ ذاكرتي حبةً من وفاءْ
فتَخْصِبُ ...

تُصبح يا وطني ألفَ حبّـهْ
لسوْفَ أرتّلُ آياتِ حبّي إليكَ
أيا وطني ...
وطن العاشقين
أيا وطني ...

وطن الكادحين
وأرحلُ في خضرةٍ منْ عيونكَ ... ثمّ أؤوبْ
فؤادي – على الكفِّ – أرغفةُ البائسينْ
وشعري غناءُ الرّفاقْ
وحرْفي مراسي الحنينْ

رواية عمرها ٣٩ عامًا

سَعيد سَالم

- ١ -

يطل الشباك العتيق على البحر حيث ولدت ، شبه خال والناس قليلون ، على الطبلية التي صنعها عم حسين النجار - بثلاثين قرشا - فاحت رائحة الخبز الابيض الوردي • أتابع الابتسامة في عيني أمي وهي ترمق أصابع أبنائها المتسابقة حول طبق الفول الكبير • كنت قد اشتريته من عم ابراهيم بنصف قرش وأضاف اليه مغرفة كاملة من البليلة •

ينساب صوت المطرب هادئا من الراديو العجوز المعلق بمسمارين الى الحائط • تصاحب الصوت آلات موسيقية قليلة العدد عديمة الضوضاء • يلف أبي سيجارة من علبة دخانه الصفيحية الداكنة ويشرب الشاي بتلذذ ساحر • أبي فنان يحب دائما ان يصحبنا معه الى مسرح الكبار ، أرقب وجهه فألمح الانبساط على علاماته العريضة المطمئنة لنفسي ، يعطي أمي عشرين قرشا - مصروف البيت اليومي - في يدها • تقبل أمي النقود وتضعها في صدرها دون ان تنظر اليها ، ثم تدعو له بالتوفيق وسلامة العودة •

تربت على صدره قرب الباب وعيناها لا تريان من الكون سواه يتذكر شيئا نسيه فيعود الى الغرفة التي كان ينام فيها مع أمي، كانت الغرفة الوحيدة المتميزة عن بقية الغرف الواسعة العالية الاخرى بوجود شرفة طويلة بها • نادانا جميعا فهرعنا الى الشرفة ، طابور من الدبابات والعربات المدرعة يتجه الى قصر الملك • لابد أنه استعراض عسكري لا نعرف مناسبته •

في طريقي الى القصر- وأنا ابن التاسعة - وسط الجموع الحاشدة واجهت الموت لأول مرة في حياتي القصيرة ، كان عصفورا ملقى على الطريق ، داهمتني هزة داخلية عنيفة غامضة لم يشبها الحزن ، لكني لم أتوقع ساعتها ان العصفور أبدا لن يعاود الطير •

- ٢ -

تآكلت الطبلية وتهشمت ، سألنا عن عم حسين النجار فوجدناه قد مات ، كلفتنا الطبلية الجديدة جنيهين •

لم يعد عم ابراهيم - بعد انحناء ظهره - يضيف البليلة الى الفول فضلا عن أن مغرفته كانت تزداد انكماشا بمرور السنوات

تحولت العلامات المنبسطة على وجه أبي الى خطوط متوترة وتسلل الشعر الابيض الى رأسه ، أما ابتسامة أمي فكانت مجهدة .

ازدحم الشاطيء بغرباء ذوي شعور منفوشة وكلمات عجيبة ومخارج الفاظ تثير التقزز ، حجبت الكبائن الجديدة عن أعيننا شطرا كبيرا من مجال الرؤية ، أما الراديو الخشبي العجوز فقد أعلن احتجاجه على طول العمر بالصمت الابدي ، وبمجيء التلفزيون لم يفكر احد في اصلاحه .

رغم اغلاق مسرح الكبار فقد قال أبي انه متفائل برؤية ذلك الطابور المدرع الذي اكتشفناه فجأة ، وأن أيامنا سوف تكون أفضل بكثير من أيامه ، كانت امي تدعو الليل والنهار أن يحفظ الله حكامنا ويرعاهم ويطيل في أعمارهم ، كنت أتعجب في صمت من جدوى هذا الدعاء الغريب ، فقد علمنا مدرس الدين أن الاعمار بيد الله وأنها قد تقررت من قبل ، فما جدوى المطالبة باطالتها او تقصيرها ..؟

مات أبي ولم أعد اشتري الفول من عم ابراهيم لأسباب عديدة ، منها أنني أمضيت ست اعوام في صحراء سيناء ، بدأت بمذبحة مخجلة وانتهت بقيادتي لطابور من الاسرى أعيدوا الى اسرائيل بعد أشهر من وقف القتال تذكرت نبوءة أبي بالايام الوردية والمستقبل المنير وأنا أمضغ خبزا رمادي اللون وأمضغ معه قصص الحب المحترقة والاماني المقبورة حاولت كثيرا أن أنضم الى مسرح الشبان لكنهم منعوني بمختلف الوسائل ، قالوا لي :

ـ يكفيك أن تتفرج يا هذا .

أصابني في تلك الآونة مرض أعتقد أنه سوف ينتشر قريبا على كوكب الارض ، وهو عدم الرغبة في الكلام كلما أمكن ذلك ، عدت الى عملي المدني فاستقبلني الزملاء استقبال الابطال ووجدت درجتي الوظيفية قد ضاعت وابتلعها شاب صغير الرأس طويل الرقبة بليغ في الخطابة ولع بامساك آلة الميكرفون .

في الحفلات والمؤتمرات كانوا يصفقون له بشدة ، وبعد انصرافه يتهامسون بكلمات لم أحاول أن أسمعها فقد كرهته من قلبي .

حضر نفر من الشبان ذات مساء واقتحموا مسكننا ، اختفي أحد أشقائي سنين طويلة كنا نتأكد خلالها دواما انه ما زال على قيد الحياة ، وأغلب ظني ان صحة أمي لم تبدأ في الانهيار الا بعد تلك الليلة التي عاد فيها أخي ولم تتعرف الى معالمه ، بسهولة ، عموما فانها كفت فيما بعد عن الدعاء الى الله لحكامها . بعد ذلك تعلمت من الحياة ان من يموت لا نراه مرة ثانية .

ـ ٤ ـ

ماتت أمي وتفرق أشقائي وشقيقاتي سعيا وراء الرزق والحياة أما الخطيب البليغ فقد احتل منصبا خطيرا أتاح له فرصة العمر في طول الامساك بآلته المحببة .

كان لا بد أن أتزوج من حبيبتي الاخيرة بعد أن طال انتظارها لي. فقمنا باحتلال غرفة أبي حامد بن المولى على حصولنا على المأوى .

كان التفاهم بيننا على ادارة حياتنا تفاهما مثاليا . نتبادل الوقوف في طوابير الخبز يوما بعد يوم ، نتفنن في تبادل الاقناع والاقتناع بمزايا القناعة وحلاوتها فنقول لبعضنا .

ـ القناعة من الايمان .

ـ القناعة كنز لا يفنى .

ـ عز من قنع وذل من طمع
ظللنا ندعم اواصر هذا التفاهم سنين عديدة دون أن نجد عنه بديلا، حتى فوجئنا يوما بحفل موسيقى صاخب يقيمه من تبقى من الشبان الذين شاهدناهم يوم الطابور المدرع • لقد ذهلنا عندما رأينا الشيب يغزو مفارقهم والزمن يترك علاماته على وجوههم ويؤثر في ألفاظهم • أنا شخصيا لم أتعجب عندما لمحت زميلي الخطيب جالسا بينهم في الصفوف الامامية وقد ازدادكرشه انتفاخا ، لكني تعجبت حقيقة عندما اكتشفت زوجتي ان هناك ثقبا في بنطلوني من منتصف الخلف ، فاضطررنا الى مغادرة قاعة الحفل حتى ترتق الثقب

بالمنزل ، كان ابي الراحل يتعقب خطواتنا في الطريق ، وما ان وصلنا الى المنزل حتى اختفى من جديد •

في تلك الليلة اكتشفنا بمحض الصدفة ان شهادة الليسانس ، التي كانت ضائعة ـ مندسة في حياء بين اكوام الجرائد القديمة التي اعددناها للبيع ، تأملت بعمق شديد توقيع رئيس الجامعة في ذيل الشهادة بحروف صغيرة جدا ، ثم توقيعي اسفله بحروف كبيرة متكبرة نظرت الى زوجتي وهي ترتق الثقب المركزي ووجدت نفسي ابتسم •

أنجبنا طفلين فأصبح الشاطئ غير الشاطئ والشارع غير الشارع والناس غير الناس ، على عكس ما كان يفعل أبي معنا ، كنت أنظر اليهما باشفاق شديد من المستقبل ، وكانت تلك النظرة تعذبني كثيرا •

اكتشفنا أننا نأكل على مائدة وأننا ـ رغم تفاهمنا الشديد ـ نكاد نتخاصم بصفة دورية في الايام الاخيرة من كل شهر ، أما شبان الطابور فقد اختفوا جميعا من على خشبة المسرح بعد أن تمزقت ستائره وتحطمت مقاعده وهجره جمهوره •

تحول الفراغ بداخل الجسم الخشبي للراديو العجوز الى مخزن لأدوية الاعصاب والضغط والحموضة • قلت لزوجتي ان ابي كان رجلا ساذجا لأنه أصر على ادخالي الجامعة لأسباب لم أعرفها وقتذاك قالت أنها مجرد حالة احباط طارئة نتجت عن انتظاري للاتوبيس أكثر من ساعة بعد خروجي من العمل •

أردت أن أثبت لها أنني ما زلت متفائلا رغم سذاجة أبي ، فاشتريت للاولاد ـ دون تردد طويل، كيلو جراما من الموز البلدي بجنيه كامل ودعوتها لزيارة مسرح الشبان لنتفرج على آخر مسرحية لهم ، خاصة وأنني حصلت بقدرة قادر على تذكرة دعوة مجانية لحضور العرض •

عندما وصلنا الى المسرح وجدنا عربات المطافئ والنجدة تحوم حول المكان بأصواتها الكريهة المفزعة ، كان المسرح حطاما ، همست ذاهلا :
ـ يا اولاد الـ ••

لم تحتمل عيناي رؤية الخراب فامتنعت تلقائيا عن الرؤية ، لم يحتمل القلب عجزي عن الفعل وحيلولة عمري دون حدوثه فتوقف تلقائيا عن النبض ، وهكذا توفيت على الفور ، دفنوني في ثقب الارض ولم أجد أبي بالداخل

كانت تجربتي الاخيرة مع الموت ، فحمدت الله أن جاءت مبكرة ••

*

سعيد سالم ـ الاسكندرية

إمانويل كانت

(١٧٢٤ - ١٨٠٤)

أحمد سنبل

ولد امانويل كانت في ٢٢ نيسان ١٧٢٤ بمدينة كونجسبرج ، الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية لالمانيا - من أبوين فقيرين : اذ كان أبوه يعمل سراجا بينما كانت أمه من أسرة متواضعة ٠٠ وقد نشأ في جو مسيحي مشبع بروح النزعة التقوية فأثرت على نفسه هذه التربية الدينية التي تلقاها منذ صباه ، خصوصا وأن والدته كانت متمسكة بهذه النزعة الدينية المحافظة ، التي ظهرت كردفعل ضد النزعة البروتستانتية الايفانيه ، وضد شتى النزعات الفكرية الحرة ٠ وقد استطاعت أمه أن تشبع في نفسه منذ نعومة أظفاره روح الايمان الديني والاعجاب بالظواهر الكونية والشعور بسمو الطبيعة ٠

ألحقته في العام الثامن عمره بالكلية الفردريكية بكونسجبرج ، حيث تتلمذ على يد أحد رجال النزعة التقوية ، التحق بكلية الفلسفة التابعة لجامعة كونسجبرج ثم تقدم عام ١٧٤٦ ببحث جامعي صغير تحت عنوان (آراء حول التقدير الصحيح للقوى الحية)

اشتغل مدرسا خاصا لأحد أبناء الاسر النبيلة ٠٠ قرابة تسع سنين ٠٠ نجح في تكوين تلاميذ ممتازين استطاع ان يبث في نفوسهم شعوره العميق بالحرية ، وتقديره العظيم للقيمة الانسانية ٠٠ عاد الى كونجسبرج عام ١٧٥٥ لكي يعمل محاضرا بجامعتها قرابة خمسة عشر عاما كان فيها نموذجا للمدرس الناجح (١)

لم يتزوج ٠٠ فقد بصره وذاكرته في آخر حياته ٠ توفي وهو يقول : حسنا

كتبه :

مؤلفاته كثيرة جدا ، ولمعرفتها لابد من الرجوع الى كتاب الدكتور زكريا ابراهيم (كانت) وننتقي منها :

الاساس الممكن الوحيد للبرهنة على وجود الله ١٧٦٣
دراسة في وضوح مبادىء العلم الالهي النظري والاخلاق ١٧٦٤ ٠
وصور ومبادىء العالم المحسوس والعالم المعقول ١٧٧٠
نقد العقل الخالص النظري (وهو كتابه الاكبر) ١٧٨١
مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلة تريد أن تعتبر علما ١٧٨٣
تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق ١٧٨٥
نقد العقل العملي ١٧٨٨
نقد الحكم ١٧٩٠
الدين في حدود العقل الخالص ١٧٩٣
رسالة في السلام الدائم ١٧٩٥
ميتافيزيقا الاخلاق (في جزأين) ١٧٩٨

أطار عام :

يأتي كانت في نهاية القرن الثامن عشر وهو عصر التنوير ، وقد وضعنا هذا الاطار العام لنجيب عن سؤال: متى تظهر فلسفة جديدة ؟ ؟

أولا : الوجه الاجتماعي : لقد ظهرت البورجوازية في القرن السادس عشر التي حاولت صهر كل الطبقات في كيانها ، لكونها كانت تتميز بالتماسك والوعي ٠٠ وقد بدأت على شكل تاجر ثم مغامر ثم مثقف ، وفي القرن الثامن عشر حاول المفكرون اصلاح المجتمع و قيادته ٠ كان منهم فولتير ، دولمبير ، روسو ٠٠ وقد انصب تفكيرهم على حل المشاكل الاجتماعية

وليس الفلسفية فتكلموا باسم الشعب محاولين دخول التاريخ ليقولوا كلمة في سياسة الدولة ، وبعد جهد لم يطل كثيرا أصبح للشعب كلمته لكونه أمسى مصدر السلطة وصاحب الحق والواجب واعلان الحريات ، فظهرت ولأول مرة فكرة الانسانية للوجود ، الانسان بما هو انسان ، ثم ظهرت الدولة بالمعنى الحديث للكلمة كما ظهرت فكرة المواطنة • وهذا ماطابق كتاب السياسات عند أرسطوا •

ثانيا : الوجه العلمي : بدأت بوادر علم الاجتماع ، وعلم التاريخ ، ثم العلم الجديد ، علم الاقتصاد ، وقد نشأ هذا العلم فيفرنسا لوجود البورجوازية ثم انتقل الى انكلترا مما يدل على ان البورجوازية قد ظهرت فيها أيضا • كما أن نيوتن قد قفز قفزة جديدة في هذه الفترة مع الفيزياء الرياضية ، وقد أطلق على علمه اسم الفلسفة الطبيعية •

ثالثا : الوجه الفلسفي : ظهرت صياغة فلسفة لايبنتز على يد وولف على شكل مذهب ودرس المذهب في ألمانيا ، وبذلك سيطرت فلسفة لايبنتز ، كما ظهرت الفلسفات الارادية • ثم تعارض الحال بين الفلسفة التجريبية والعقلية ••هذه التيارات كلها أثرت بـ (كانت) •

رابعا : الوجه المهم للثورة الفرنسية : لقد جردت الثورة الفرنسية فكرة الانسان بما هو انسان فسلخت الانسان عن العشيرة والاسرة ، وجردت فكرة الشعب بما هو شعب كما تجلت الدولة الحديثة بمفهومها الحديث •

ولكن لماذا أطلق على هذا العصر (عصر التنوير) ؟ ؟

لا جواب ، الا لأن هذا العصر سار على هدى العقل ، ولا شيء غير العقل ، ولا امام سوى العقل ، ولكن ، هل حقا كان العصر عصر عقل فقط ؟ ؟ ؟

ان العقل مكن الكاتب او المفكر من انقاذ الشعب ، وأقصد هنا بكلمة عقل قوة التجربة ، والذي ما يزال موجها للمجتمعات حتى الآن هو العقل المجرد ، وكلمة عقل هذه بدأت بالظهور مع ديكارت باستعمالها القوى ، وقد أعطت مردودهلا القوي الكامل في العصر العالمي ، أقصد العصر الاممي ، وفي هذا العصر ، في هذا الجو نشأ كانت ، كان مدرسا ، وكانت بالفعل نقطة التحول من القرن ١٧ الى ١٨ ، من الفلسفة الكلاسيكية الى هيجل وماركس •

ونعود مرة أخرى الى سؤالنا :متى تنشأ فلسفة جديدة ؟ ؟

ان الاقتصاد الجديد والحركات الشعبية ودخول العلم والفكر بمجموعه ، هذه التطورات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعلمية •• هذا كله يثير مشكلات جديدة ، ويطرح على الفكرالانساني مشكلات جبيدة ، وعند كل تحول جديد في الحياة الاجتماعية تظهر الفلسفة وعندما تكون التحولات غنية بآثارها تتولد فلسفة جديدة ، ما معنى - مثلا - رد فيلسوف على فيلسوف آخر ؟ ؟ كرد أرسطو على أفلاطون أو نقد كانت للايبنتز وأفلاطون ؟

قبل أن نقول ان هناك رد • يجب ملاحظة أن فيلسوفا لا يرد على فيلسوف آخر وانما يقوم الفيلسوف بالدرجة الاولى حيال الفلاسفة الذين قبله باستعادة وانشاء المشكلات كي يستجيب مع متطلبات العصر ، وهذا ما يميز الفلسفة عن العلوم ويجعل للفلسفة تاريخا ، وتأتي قوة الفلسفة في أنها جواب على مشكلة تطرحها الحياة الاجتماعية •

فالفيلسوف هو الذي يشق طريقا جديدا لتخطي هذه المشكلات نحو مشكلات أخرى ، وكل فيلسوف يستعيد المشكلات الفلسفية من نقطة انطلاق جديدة فاتحا أفقا جديدا للمستقبل ، وان الذي يوجد ليس نقد فيلسوف لفيلسوف آخر ، وانما استعادة••

ومحاولة من أفق خاص لانتقاء الموضوع ، واستعادته ، وذلك بطرح المشكلةلحسابه الخاص • وعندما يعيش لحسابه الخاص وفي الخط الجديد الذي يعطيه يبدو له الفيلسوف القديم وقد أصبح قديما ، فيقوم للرد عليه والانتصار •

مثلا ، أرسطو استعاد كل المشكلات الافلاطونية ، وهنا ظهرت عبقريته في تطلعه الشخصي فقد أوجد ارسطو فكرة الدولة والمواطنة في أثينا ، وكذلك نجد روسو في العقد الفريد يستعيد مشكلات السياسة عند أرسطو •

ونتيجة لما سبق نقول : عندما تظهر فلسفة جديدة تكون قد طرحت مشكلات جديدة تستدعي تلك الفلسفة ، وهذا التفكير يستعيد المشكلات القديمة من دلالة جديدة ، هذه الاستعادة يأخذ بها الفيلسوف نفسه من حيث مزاجه الشخصي في تأليفه الجديد • والفلسفات دائما لا تخلو من طابع شخصي معين وقدرة على الابداع ، وأبدا نرى الفلسفة تتبع لشخصية الفيلسوف وحله للمشاكل الجديدة •

والآن ، ما الفرق بين التفكير العلمي والتفكير الفلسفي ؟ ؟

اذا دارت مناقشة حول كتاب ما ، هذه

المناقشة لها موضوع معين (ما وضع أمام الانسان) أما المشكلات فليست موضوعا • وهذا ما يميز التفكير العلمي عن التفكير الفلسفي •

الفلسفة لها موضوع انما هذا الموضوع ليس شيئا موجودا أمامنا ومفصولا عنا ، مثلا علاقة العلم بالفلسفة او المشكلة الكانتية (نقد العقل) ليست موجودة أمامي كوجود الاشياء ، ولكنها موجودة •• موجودة ••

نعود لنسأل : ما الذي استدعى قيام فلسفة كانت ؟ ؟

لقد ذكرنا اهم العوامل حين استعرضنا الجو الاجتماعي ، ولكن ما الذي يتعلق ب (كانت) ذاته ، وبالدرجة الاولى المشكلة التي طرحت عليه وهي مشكلة العقل ، ولماذا المشكلة الاساسية هي العقل ؟ ؟

١ – ان العقل برز كقوة موجهة للمجتمعات كان الحاكم في السابق يتكلم بقوته الشخصية فيوجه •• ولكن الوضع عندكانت قد تغير •• الانسانية أرادت مصممة تسليم أمرها الى العقل بما هوعقل • وهذا استدعى تجاوب الشعب •

٢ – لم تبلغ بقية العلوم درجة الكمال الذي بلغته الفيزياء وتطبيقاتها على الصناعة ، وظهور الالة البخارية • هذا النمو لعلم معين استدعى التساؤل عن قيمة العقل الذي يضع هذا العلم • ولابد لنا هنا من القول ان اعادة النظر في المنجزات هي السبب في النمو ، والانسان الذي لا يشك في معرفته لا يمكن له أن يتقدم ، لأن الحياة الانسانية ليس فيها وقوف وانما اما الى الوراء او الى الامام ، لا وسط •

أين موقع كانت من كل هذا ؟ ؟

لقد تجاوز كانت نظرية المعرفة ، ووضع العقل التحليلي موضع بحث وتمحيص، أي أن منهج ارسطو التحليلي وصل أبلغ درجة من الكمال من ديكارت ولايبنتز ، والذي وضعه موضع تساؤل هو كانت ، وبذا مهد لقيام الديالكتيك بعدأن نسي منذ أيام أفلاطون •

٣ – ثم ان الدين كان له أثره على كانت بشكله المسيحي البروتستانتي الذي تلعب الارادة فيه دورا كبيرا •

٤ – والفلسفة الاخلاقية كانت قد خطت خطوة واسعة في القرن الثامن عشر •

٥ – والذي مهد لقيام الكانتية هو الفلسفة التجريبية •

ولكن بأي نقطة أثرت على كانت ؟ ؟ لقد أثرت عليه في نقطة السببية •

ولا بد لنا هنا من السؤال : ماهي الفلسفة التجريبية ؟

لقد أطلق عليهاهذا الاسم لأن مجال النزاع كان مبادىء العقل ، أي المبادىء التي تستند عليها البرهنة (السببية ، عدم التناقض ، الهوية) ، وهل هذه المبادىء فطرية أم نتيجة تجربة هنا يقول كانت (الذي أيقظني من ثباتي في اعتقادي هو هيوم) ، وذلك بمبدأ السببية الذي جعله كانت موضع شك وبحث •

علنا بعد هذا استطعنا أن نلقي الضوء على المؤثرات التي أثرت بكانت مباشرة ، ونوجزها بالتالي : الاخلاق ، ، الدين ، الفلسفة التجريبية ، الفلسفة العقلية ، علم نيوتن •

* * * * *

ماذا قصد كانت بالنقد ؟

للنقد ثلاثة مستويات :

١ – المستوى الافلاطوني : كل ناقد افلاطوني ، وذلك بشكل عفوي لأنه يتصور (النموذج) أو المثال ، وكل اعتقاد بوجود نموذج يعارض الشيء الذي ينقده هو نقد أفلاطوني •• اما ان يقترب من المثال أو أن يبتعد عنه •

٢ – المفهوم الكانتي : يقوم على تحليل وتفكيك العقل الى أقسام يتركب منها ، لايضاح عمليات كل جزء من أجزاء العقل ، ومدى صلاحية هذا العقل للتعبير عن الظاهرة (الواقع) •

ذلك لأن في العقل مفاهيم ، فما مدى هذه المفاهيم وصلاحيتها في التعبير عن الواقع ، وما حدود هذه المفاهيم ؟

لقد أراد كانت في نقده تفجير كل العقائد ، من الداخل ، لعرض المفاهيم التي تنطوي عليها على محك النقد ، ليرى مدى صلاحيتها من قبل الانسان •

٣ – المعنى اللاتيني للنقد : هوأن توقع العقلفي أزمة ، وقد أوقع كانت العقل في أزمة ، (ما الذي يمكنني أن أعرفه) وما الذي ينبغي لي أن أعمله ؟ وما الذي أستطيع أن آمله ؟؟) ويعلق الدكتور زكريا ابراهيم في كتابه كانت: (وهذه المشكلات النقدية الثلاث هي على التعاقب : مشكلة المعرفة ، والمشكلة الخلقية ، والمشكلة الدينية ، والمشكلة الاولى منها تخص العقل النظري ، والثانية العملي فقط ، وأما الثالثة فتخص النظري والعملي معا) •

الأحكام التركيبية والاحكام التحليلية :

التحليل هو استنباط المفاهيم بعضها من بعضها الاخر • والتركيب هو التأليف ، أما التركيب الذي قصده كانت فهو التأليف بين القضايا ، وقدرة العقل على الانشاء ، ثم تخطي هذا التحليل للوصول الى أن وراءه قدرة عقلية على الانشاء ، ولكن هذه القدرة محدودة لاتصل الى كل المواضيع من أجل انشائها ، (هدمت العلم لأقيم بدلا عنه الايمان) أي أن العلم بما أنه تحليلي استنتاجي لا يمكنه ان يتناول موضوع ما بعد الطبيعة •

وبهذا المعنى يمكن القول ان الذي هدم علم الطبيعة التقليدي الى غير رجعة هو كانت ، وأدخل علم الوجود في أزمة مازالت مستمرة الى اليوم •

وبتفجيره العقل فجر الفلسفة كلها • وما زالت الفلسفة كلها – أقصد الفلسفة الحديثة – تعيش في هذا التفجير الجميل وفي آثاره • أفلا يحق لنا القول بعد هذا ان نقول ان كانت هو المفصل الاساسي في تاريخ الفلسفة ؟؟

الفرق بين الحكم التركيبي والحكم التحليلي :

الحكم التحليلي : المحمول مستنبط من تحليل مفهوم الموضوع •

ولقد أوصل لايبنتز الفلسفة التحليلية الى قمتها ، ثم بعده وقعت في مأزق لأنه قال ان التحليل يجب ان يكون متضمنا في الموضوع •• وكانت هو الرد المباشر على لايبنتز •

وخصائص التحليل أنه قبلي أو أولي ، يأتي قبل التجربة ، كما أنه ضروري كلي لأن القضية التحليلية تسند الى مبدأ الهوية الذي هو مبدأ تحليلي •

الحكم التركيبي : لا يتضمن موضوعه محموله ، ففي محموله اضافة جديدة •وهو استنتاجي يتسم بسمتين يجب التوفيق بينهما هما : الاستنتاجية ، وأن النتيجة ليست متضمنة في المقدمة •

الاحكام الموضوعية : تقابل كلمة (موضوع) عند كانت كلمة (جوهر) عند ارسطو ، ولكن السؤال الملح عند كانت : ما هو قوام هذا الموضوع ، وكيف يتكون؟

ان الاحساس هو الذي يقوم مضمون العقل ، ويقول كانت : (يجب أن يصحب الأنا كل تصوراتي) ، أي أن كل هذه الموضوعات هي من تصوراتي ، وتصحب أناي (والاحكام الموضوعية •• تعبر عن علاقة ضرورية كلية بين الموضوع والمحمول ، فلهاقيمة بالنسبة اليهما معتبرين في نفسهما مستقلين عن الشخص الذي يحسهما ، أي أن لها قيمة موضوعية ، ولفظ موضوعي في لغة كانت ، ما كان له قيمة كلية مستقلة عن الشخص بما هو شخص ، مثل قولي ضوء الشمس يسخن الحجر •• فان قصدي هنا ان ضوء الشمس علة سخونة الحجر) (١) •

ويقرر كانت أن القضايا الرياضية الحقة هي دائما أحكام أولية غير تجريبية ، بدليل أنها تنطوي على ضرورة لا سبيل الى تفسيرها بارجاعها الى التجربة • وبضرب كانت مثلا لذلك بالحكم الهندسي القائل بأن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فيقول اننا هنا بازاء حكم تركيبي ، لأن تصورنا للمستقيم هو تصور كيفي صرف، لا أثر فيه للمعنى الكم المتضمن في محمول أقرب مسافة • فنحن هنا بازاء قضية تأليفية لا يمكن اعتبار محمولها متضمنا في موضوعها ، ما دام من المستحيل استخلاص فكرة المسافة القصيرة من فكرة الخط المستقيم ، عن طريق التحليل العقلي الصرف • ولكن هذه القضية هي في الوقت نفسه أولية ، لأن العلاقة بين موضوعها ومحمولها علاقة ضرورية كلية ، فلا يمكن انكار صحتها دون الوقوع في تناقض ، واذن فلا بد من التسليم بوجود أحكام تركيبية أولية في الهندسة ، وهذا هو الحال أيضا بالنسبة الى الحساب •• (٢)

نقد العقل النظري :

يقسم العقل عند كانت الى ثلاثة أقسام :

١ – شروط ترتيب عالم الحس ، وهو ما يطلق عليه (الحساسية) •

٢ – التحليل وهو ما يصف العقل الانساني بأنه قدرة على انشاء العلم •

٣ – الجدل الصوري وهو موضوع المناقشات

الحساسية : يستخدم العقل ليرتب عالم الحس مفهومين هما الزمان والمكان• وقد بين كانت بأن الزمان والمكان هما صورتان متعاليتان على التجربة ، وسابقتان عليها • ويتبع للبرهان على ذلك برهنة ميتافيزيقية ، وبرهنة متعالية •

١ – يقصد بالبرهان الميتافيزيقي ما هو مبدأ أول ، الزمان والمكان هي المبادىء الاولى العقلية التي تنظم عالم الاحساس فنحن يمكننا ان نلغي الحدوس الحسية

فيبقى الزمان والمكان .. ودائما يوجد تواجد للزمان والمكان قبل الحادثة، وبعد الحادثة ..
٢ - ويقصد بالبرهان الصوري ذلك الشكل الذي يجعل عالم الحساب (الزمان) ، وعالم الهندسة (المكان) ممكنا ، ولولاهما لانهارت الرياضيات المحضة .

التحليل الصوري :

ان الغرض من التحليل هو تفسير الاحكام العملية ، وهذا ينقسم الى : تحليل للمعاني ، وتحليل للمبادىء وتحليل المبادىء معناه استكشاف قوانين العلم الطبيعي الخالص التي تسمح باستعمال هذه المعاني ، أما تحليل المعاني فيفحص المعاني الذاتية التي تربط بين الظواهر المعروضة في المكان والزمان ربطا كليا ضروريا ، ويسميها كانت (مقولات) ، وتحليل المعاني من جهة أخرى يبين أن لهذه المعاني قيمة أولية موضوعية ، ويسمي كانت هذا البيان استنباط المقولات ، ويبين تحليل المعاني كيفية تطبيق المعاني على الظواهر ، ويسميه كانت بالرسم الصوري .

لقد كشفنا ماقاله تاريخ الفلسفة الحديثة فيما يتعلق بالموضوع ، ومع ذلك فان الصفحة ٢٢٥ تلخص قائلة : (لاجل الفحص عن المقولات يجب ان نحصي اولا أنواع الاحكام ، فنجد أنها أربعة : ذلك أننا اذا نظرنا الى موضوع الحكم دون مفهومه لم يبق لنا الا كميته او ماصدقه واذا نظرنا الى المحمول مثل هذه النظرة لم يبق لنا الا انه كيفية مضافة الى الموضوع ، واذا اعتبرنا العلاقة بين الموضوع والمحمول كان لنا معنى الاضافة واذا اعتبرنا النحو الذي يترابط عليه الموضوع والمحمول كان لنا معنى الجهة ، وعلى ذلك تنقسم الاحكام بحسب الكمية والكيفية والاضافة والجهة) .

فمن حيث الكم يكون عندنا الاحكام التالية : كلية ، جزئية ، شخصية .

ومن حيث الكيف يكون عندنا : الموجبة ، السالبة ، المعدولة .

ومن حيث الاضافة تكون الحملية ، الشرطية المتصلة ، الشرطية المنفصلة ،

ومن حيث الجهة تكون الاحتمالية ، الجبرية ، اليقينية .

ويفصل كانت فيقول ان هناك هذه المبادىء يستند عليها العقل عند انشاء الموضوع ، ويعطي مبدأ الكم والكيف للرياضيات ، كما يعطي الاضافة والجهة للعلوم الطبيعية .

النقائض :

هل للعالم بداية في الزمان ام لا؟
ان العالم المحسوس يتعلق بموجود ضروري، وهذه تتعلق بالله ، ونحن يجب ان نفرق بين المستويات ،ما هو خاضع للحتمية العلمية من مستوى ، وما هو خاضع للحرية من مستوى آخر .
وحريتي ليست من العالم التجريبي فهي من مستوى آخر .

ومن هنا نستطيع الدخول الى نظرية التناهي ، والبرهنة عليها : تبدأ نظرية التناهي بالمعطي الراهن ، وتنتقل في السلسلة من واقعة الى أخرى، ومن قضية الى أخرى لترى قبل النهاية أن هذا التسلسل لا يمكن أن يستمر الى مالا نهاية له ، اذ أن الاستمرار نقيض الكلية المشروطة .

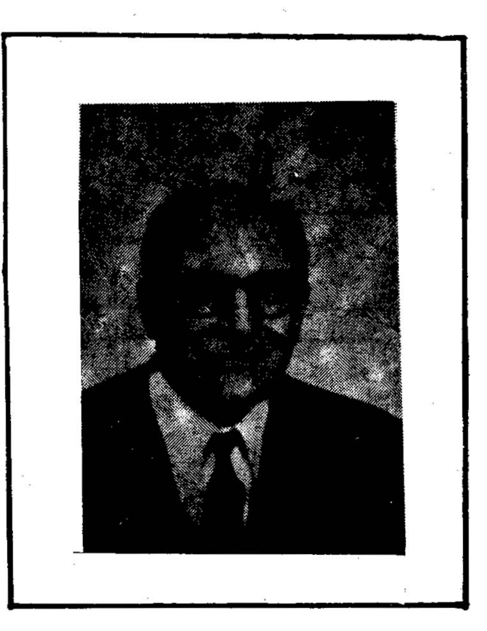
ثم نأتي الى عرض لنظرية اللا تناهي التي خلاصتها : ان كل حادثة محدودة في محل وهكذا الى مالانهاية ، ويمكن لنا ان نجمع نقدها في ثلاثة امور :
- لا يستطيع العقل ان يحيط بالعالم، فكل معرفة محدودة .
- نزع الصفة الالهية عن العقل الانساني او مقولة ان كل عقل مرتبط بالتجربة
- تحطيم الكوزمولوجيا اليونانية والتقليدية .

أخيرا ، نستطيع ان نقول ان كانت قد هدم كل الفلسفة التقليدية ، وذلك باخضاعها لنقده الصارم ، و بذلك استطاع كانت ان يحرر العقل الانساني ويكسر كل قيوده .

نيران على القمم
سيرة ذاتية

وحررنا الجبل

-٢٩-



سعيد ابو الحسن

مثلما كان عام ١٩٤٤ عام التوحيد (الغاء الاستقلال الاداري المالي) سيكون عام ١٩٤٥ عام التحرير ، عام انهاء الاحتلال الاجنبي لمحافظتنا ،..

كان علي ان أظهر تنظيم العصبة وأنهي المرحلة السرية ، ولكن وجود فرع واحد في محافظة سورية واحدة ، من دون وجود تنظيم مركزي ، لم يكن له معنى ولا فائدة ، وقد سبق ان قلنا ان العصبة ضربت وشتت قادتها واستتر أعضاؤها ، فكيف السبيل الى اعادة الحياة اليها ؟ نحن من الوجهة القومية لم يكن لدينا أي فرق بين ارتباطنا بالعصبة في لبنان وارتباطنا بالعصبة في دمشق او في اي قطر عربي آخر ، ذلك لاننا وحدويون تساوت في نظرنا واعماقنا جميع اجزاء وطننا الواحد فذرة الرمل في حضر موت ، والحجر الكلسي على شواطئ المتوسط ، والشاطئ المقابل لاوربة على المحيط الاطلسي ،، كلها في عقيدتنا متساوية وتستحق ان نناضل من اجل تحريرها وان نموت من اجل وحدتها وسيادتها .

وكتبت الى بعض العصبيين في دمشق احثهم على اعادة الحياة الى العصبة ، وكانت الظروف تستدعي ذلك ، وفي ٥ كانون الاول ١٩٤٤ اعلن الاستاذ فهمي المحايري الامين العام للعصبة عودة العصبة الى العمل ، حينذاك اتخذنا قرارا بالبدء بالتسجيل العلني والارتباط بالمركز بدمشق اعتبارا من اول شهر كانون الثاني ١٩٤٥ ، وذهبنا الى دمشق وقمنا بما يلزم من اتصالات ومباحثات ، ولكني شعرت من خلال احاديثنا اننا

كفرع ، أقوى منهم ، كمركز ، ولكن لا بأس فسوف نستمد من وجودهم الشرعية ، بينما يستمدون من وجودنا القوة والفعالية ، وصرنا نزودهم بلوائح تتضمن اسماء الاعضاء المنتسبين ، و أول لائحة ارسلت اليهم كانت في ١٢ كانون الثاني ١٩٤٥ .

بهذا الارتباط حلت بالنسبة الى مشكلة " الانتماء " التي تترجم عمليا بالجواب المطلوب يوميا عن سؤال الاعضاء " بمن نحن مرتبطون في المركز ؟ " والحق معهم لأن حزبا وحدويا قوميا لا بد ان يعرف اصوله وفروعه ، ولكني - معذلك - كنت أشعر في اعماق اعماقي انني في سباق مع الزمن : فالحلفاء بعدانتصارهم في افريقية ونزول جيوشهم الى البر الاوروبي صاروا في طريقهم الى انهاء الحرب واذا ما انتهت الحرب فسيتفرغون لنا - واذا تفرغوا لنا ونحن على غير استعداد فسوف يتنكرون للوعود ونعود الى نقطة البداية من النضال .

وكانت الاستجابة رائعة ، من حيث النوع قبل الكم ، فلم يأت آخر عام ١٩٤٤ حتى كان قد انتسب الى العصبة النخبة الطليعية من المعلمين والطلاب والموظفين وصغار الملاكين وهم ابناء واحفاد وفلاحي الثورة العامة الذين استولوا على اراضي الاقطاع وتقاسموها والتجار والضباط وضباط الصف والجنود من الجيش والدرك ،وكانت تنحصر في هؤلاء تقريبافئات المتعلمين ، ثم بدأنا نضم الواعين من الفلاحينوالعمال والحرفيين وبعد اول عام ١٩٤٥ بدأت القاعدة تتسع لتشمل جميع القرى وتتغلغل في صفوف الفلاحين والعمال ، بالاضافة الى المزيد من التوسع في الصفوف الطليعية التي ذكرتها ، وكانجميع هؤلاء في سن الشباب بين ١٦او ٣٥ سنةومن النادر جدا ان تجد عضوا تجاوز هذه السن الى الحد الاقصى وهو ٤٠ عاما ، ويمكن القول انه لم يبرز شخص من محافظة جبل العرب من الاربعينات الى الستينات الا كانت لهصلة قديمة بالعصبة ، او تخلق باخلاقها وترعرع في جوها .

لم تتخذ من قوتنا سببا للاستعلاء على الاخرين او الابتعاد عنهم ، بل فعلنا العكس اذ احتفظنا بأمتن الصلات بجميع عناصر هيئة الشعب الوطنيةوبجميع الاوساط الشعبية - وحاولنا دائما ان نزيل الخلاف المزمن بين اقوى قوتين عائليتين في السويداء ، آل ابو عسلي ، وهم القوة الضاربة الرئيسية في هيئة الشعب الوطنية ، وآل جربوع وهم القوة الضاربة الرئيسية في حزب الاطارشة ، ولا بد هنا من شهادة نؤديها وقد غاب منذ زمان زعيما الاسرتين آنذاك ، محمد ابو عسلي ، وحمود جربوع ، ثلاثة كانوا يحملون فكرة التوفيق بينهما وهم : الاستاذ حسينعبد الكريم وجدعان ابو عسلي وأنا - وما اكثر الخلوات الليلية التي قضيناها نقرب وجهات النظر ونبين ان الخلافات سطحية ويسهل تجاوزها ، كنا نستطيع ان نؤكد باسم محمد ابو عسلي انه مستعد للقاءوانهاء الخلاف الى الابد ، ولكن الطرف الاخر كان يتخوف هذا اللقاء ويعتقد انه اذا تم، فسيكون على حسابه هو وينتهي ماله من نفوذ بين أقاربه والعائلات الكثيرة المرتبطة بهم .

من الثلاثة ، كنت وحدي من العصبة ولم اشعر رفيقي في المسعى انني مستقل عنهما في اي تصرف ولكن بعض الاقوال

والتجاوزات من الاخرين دعتني الى اصدار الايضاح التالي :

ايضـــاح :

لما كانت عقيدة الانسان الوطنية يجب ان تسيطر على جميع اعماله واقواله وتصرفاته ، ولما كان على كل انسان ان يتحمل تبعة اعماله واقواله وتصرفاته التي قام بها بحريته واختياره . وكان من غير المعقول ان يتحمل احد تبعة اقوال واعمال وتصرفات لم تصدر عنه و لا عن شخص او اشخاص يحق لهم ان يقولوا ويعملوا ويتصرفوا بالنيابة عنه .

لذلك :

ولماكانت هيئة الشعب الوطنية تحتوي على كثير من الاشخاص الذين لم يتفهموا حقيقة مبادئها وغابت عنهم اهدافها فصاروا يتفوهون بأقوال من شأنها ، ان تسيء الى المبادىء الاولى للهيئة ويأتون أعمالا ينسبها الغير الى الهيئة لمجرد انتساب الفاعلين اليها ويتصرفون تصرف من يمثل الهيئة دون ان يخولهم احد حق هذا التمثيل .

ولماكانت بعض هذه الاقوال والافعال والتصرفات مما يسيء الى كل مبدأ وطني وكل رجل مخلص لأمته .

فانني بصفتي رئيسا لفرع من حزب قومي عربي يحرص على مبادئه وسمعته وسمعة المنتمين اليه اشد الحرص :

أطلب ان يعقد اجتماع يحضره ممثلون عن فروع هيئة الشعب الوطنية في الجبل وتكون الغاية منه انتخاب هيئة مسؤولة لها وحدها حق التصريح والعمل والتصرف باسم هيئة الشعب الوطنية بحيث يعتبر كل قول او عمل او تصرف صادر عن اي شخص كان خارج الهيئة المنتخبة تصريحا فضوليا لا يتقيد به احد ولا يتحمل تبعته احد لأن مصدره لا يمثل الا نفسه .وبانتظار انتخاب هذه الهيئة المسؤولة التي تمثل جميع الهيئات المتحدة تحت اسم هيئة الشعب الوطنية بالجبل اعتبر نفسي مع جميع رفاقي غير مسؤولين عن اي قول او عمل او تصرف يصدر عن اية شخصية كانت او مجموعة من الاشخاص لا تملك حق تمثيل احد تمثيلا صحيحا .

سعيد ابو الحسن

*

وقد اردت ان اثبت ان اختلاف التنظيمات داخل الجبهة ممكن وليس عقبة في الطريق الى تحقيق هدف بعيد رئيسي واحد ، ولا يؤثر في ذلك ان يختلف الانتماء التنظيمي لكل واحد من المتعاونين . لقد فعلنا اكثر من ذلك ، لقد حاولنا ان نحول هيئة الشعب الوطنية نفسها الى تنظيم وعرضنا على بعضهم ان يكونوا امناء هذا التنظيم مسبقا ليطمئنوا الى اننا لا نسعى الى تحقيق مكاسب فردية ، ولكنهم كانوا ينفرون من التنظيم لأنه يضع قواعد للحياة ومقاييس للاعمال والاخلاق لم يكونوا مستعدين للتقيد بها ، وقد كان يدفعنا الى ذلك ما كان يحدث ، من التصرفات والتجاوزات ، والتصريحات التي اشرت اليها في الايضاح المذكور .

المهم انني شعرت هذا العام ، عام ١٩٤٥ بأنني مسؤول عن المستقبل كله : كنت كأنني مستنفر ، فلا هدوء ولا استرخاء ولا تلهي بالهوامش والفرعيات ، وكان جميع الرفاق على هذه الدرجة من اليقظة والتأهب وكلهم يعيش قضية وطنه وامته ويواجه التحدي بتحد اكبر . صار كل واحد كأنه المعدن المصهور لا تشوبه

شائبة ، او القذيفة المنطلقة لا يقف في طريقها شيء .

وبدأت الاحتكاكات التي يمكن تسميتها ارهاصات بالمعركة المقبلة .

ألقى مفتش المعارف الفرنسي وكان صديقي من عهد الدراسة في بيروت محاضرة موضوعها هل على فرنسة ان تتخلى عن سورية ؟ واختتم المحاضرة بالعبارة الفرنسية المشهورة : أنا فيها اذن يجب أن أبقى فيها .

وقد لقيته ذات يوم في الطريق يرتدي لباس ضابط في المخابرات ، وهو في الحياة العادية راهب " يسوعي " فقال لي :

ـ أراك تتجنبني ، فهل أخيفك ؟

فأجبته :

ـ لقد تعودت ان اراك في ثوب الكاهن ولم أتعود ان اراك في ثوب ضابط مخابرات فرنسي .

فقال : اسمع يا صديقي ، ليس مسيحيا من ليس فرنسيا .

فقلت : شكرا لهذا الدرس .

وكان بالفعل درسا لا ينسى في اولوية المسألة القومية وكل قيمة تأتي بعدها في المرتبة ، ونحن نكون مخدوعين حين نعتقد ان الكاهن الفرنسي يمكن ان ينسى انه فرنسي قبل ان يكون مسيحيا وكاهنا .

مرة اخرى ، كان يسألني عن اسباب احدى التظاهرات ، فاذا هو يفاجئني بقوله :

ـ اعتقد ان الاوامر صدرت بذلك عن اركان حرب ابو الحسن .

فنظرت اليه مستغربا ، ولم أعلق على قوله ، فلقد تصورت ان كل اسرارنا مكشوفة ، وكل تنظيمنا معروف ، والا فما معنى هذا الكلام المبطن ؟ وبدأنا نزيد من احتياطاتنا وتكتمنا .

ومرة ثالثة دعاني الى حفلة صغيرة اقامها لطلاب الجامعة اليسوعية من ابناء الجبل قبل عودتهم الى بيروت واصر على دعوتي مع قدماء المتخرجين ، وحين اتصل بي هاتفيا ليذكرني بالموعد ارتبت في الامر فسألته :

ـ وعدتك وسأجيء ، لكن هل هناك أحد غير الطلاب ؟

أجاب : كلا .

وفي الوقت المحدد كنا في منزله حوالي عشرة شبان ثلاثة متخرجين وسبعة طلاب . وفوجئنا بدخول المقدم سارازان ، المسؤول الفرنسي الاول في المحافظة ، فامتعضت وقلت في نفسي : " لقد عملها المفتش المحترم " ولكنني قررت ان اردله المقلب قبل انفضاض الاجتماع .

تحدث بعض الطلاب : كلمات مجاملة غير ملتزمة وغير مخيفة . وطلبت الكلام فقلت

ـ اننا بعد ترك المدرسة والكلية والمعهد قد ننسى اسماء الاساتذة واسماء الكتب وعناوين الدروس ولكننا نخرج بخلاصة لا يمكن ان تفارقنا طوال عمرنا : وهي ان للعمل قيمة ذاتية خالدة ، وان الوقت محسوب علينا فيجب الا نضيع منه دقيقة واحدة ، واننا مواطنون لا قيمة لنا الا اذا خدمنا وطننا وامتنا بما اكتسبناه من علم ومعرفة والا كانت دراستنا خسارة مطلقة ..

عندها ، قام سارازان ، والقى كلمة قال فيها : " انني اتوجه الى الطلاب دون المتخرجين ، واطلب اليهم ان يتجهوا في دراستهم العليا الى الطب

والهندسة فالبلاد لا ترجو شيئا من دراسة الحقوق ."

فوقفت منتفضا وقلت : " انني اعتبر هذا الكلام موجها الي ، بوصفي حقوقيا ، وكنت سأنضم الى رأي المقدم سارازان لو كانت بلادنا قد حصلت على حقها في الاستقلال والسيادة ، اما وهي ما زالت محتلة فانها بحاجة الى المزيد من الحقوقيين والسياسيين ، ولا سيما ان الحقوقيين في المحافظة لا يتجاوزون عدد اصابع اليد الواحدة ، والبلاد بحاجة الى جميع الاختصاصات .

وانفض الحفل في جو متجهم وكأن انفجارا حدث ففرق المجتمعين .

كان واضحا ان التوتر بالغ اشده وان شيئا ما بدأ يرتسم في الافق كلما اقتربت الحرب العالمية الدائرة من نهايتها ، كان واضحا ان الفرنسيين ينوون التراجع والنكول بتعهدهم الذي قطعوه على انفسهم باحترام استقلال البلاد وبالجلاء عنها ، وكان علينا ان نعمل ليل نهار .

كنا قد نشرنا الوعي في جميع انحاء المحافظة ، وجعلنا الكتاب الرفيق الضروري لكل شاب مناضل ، واوجدنا مكتبة صغيرة ، لكن منتقاة ، في كل نقطة ارتكاز للعصبة ، وفكر رفاقنا في صلخد في تمثيل رواية صلاح الدين الايوبي - فأيدنا الفكرة واتفقنا معهم على ابراز هذا الحدث اعلاميا ، وتوسيع الدعوة لحضور الرواية بحيث نحقق بالفعل نواة جبهة وطنية عريضة متماسكة ، ورحت انشر في جريدة الجبل اعلانا مقتضبا متدرجا ، يبدأ غامضا ثم يتوضح ، مثلا في احد الاعداد اكتفيت بنشر هذا الاعلان " ماذا في صلخد ؟ " ، وفي عدد آخر : " صلاح الدين الايوبي تحت اسوار قلعة صلخد " .

وبدأت المخابرات الفرنسية تنشط لمعرفة ما الذي سيجري في صلخد .

وتدرجنا حتى اعلنا ان رواية صلاح الدين الايوبي ستمثل في صلخد مساء الجمعة ١١ ايار ١٩٤٥ .

وللاقدار - احيانا - تصرفات مساعدة نقفامامها حائرين ، ونسميها تارة " العناية الالهية " وطورا "المصادفة واحيانا اخرى نفسرها علميا بانها مزيج من حسن التدبير وتطابق التقدير ، اي حسن استغلال العقل للمعطيات الطبيعة ، ففي اليوم الثاني من ايار ١٩٤٥ توفي في الشقوق القريبة من صلخد احدرفاقنا المرحوم سليم الحجلة ، فنعته العصبة بالاشتراك مع اسرته وقررنا ان نقيم له حفل اسبوع حاشد ، يوم الجمعة ١١ ايار ١٩٤٥- وكانت حفلة منظمة ، لاول مرة ، على طراز غير عشائري ، كان رفاق الفقيد العصبيون هم الذين يستقبلون الوفود ويتقبلون التعزية ، الىجانب ذويه ويضعون البرنامج للكلمات التأبينية والاتجاه العام لمضمونها، من دون ان يتجاوزوا على حقوق اسرة الفقيد بل كل شيء كان يتم بالتفاهم ، لان شقيق الفقيد الاكبرالسيد سالم الحجلة كان عصبيا بارزا فضلا عن عدد كبير من شباب العائلة المدنيين والعسكريين .

وكان يحضر الحفل قائد سرية من ابناء الجبل المتمسكين بالقديم ، الموالين لفرنسة ، فساءه مارأى وما سمع فاعلن عدم رضاه وغادر القرية مع جنوده قبل تناول طعام الغداء وهذا يعتبر في عرف

الجبليين القدامى عداء ما بعده عداء .

اما نحن فأفدنا من الحفل لنختار من نشاء من المواطنين لحضور الحفل التمثيلي في صلخد ، وبعد الغداء انتقلنا الى صلخد حيث أتممنا ترتيبات التمثيل كما وصفتها سابقا ، كان عدد المشاهدين الجالسين والواقفين حوالي الف مشاهد من اصحاب الكلمة النافذة في مجال العمل الوطني الشعبي . وتوليت تقديم الرواية بكلمة تناولت فيها سيرة صلاح الدين الموجزة ، واستخلصت اننا مانزال بحاجة الى صلاح الدين ونضالية صلاح الدين في كل مرحلة من مراحل حياتنا الوطنية والقومية . وأصغى هذا الجمهور الذي لم يسبق له ان شهد روايات تمثيلية ، أصغى بكل جوارحه الى كل كلمة وكل حركة ، في صمت كامل وانتباه عميق ، وكان يستقبل ظهور صلاح الدين بالتصفيق الحاد ، ويقارن في ذهنه بينه وبين قادة الصليبيين ثم بين ايامه وايامنا .. واذكر ان سحابة عابرة امطرت رذاذا ربيعيا ، فخاطبت الحضور وطلبت اليهم ان يتحملوا ذلك مذكرا اياهم بماتحمله الروس وهم يحاربون اعداءهم والثلوج تغطي كل شيء تحتهم وحواليهم ، وتحمل المشاهدون وصبروا حتى انتهاء الرواية وصفقوا طويلا طويلا ، كما لم يسبق لهم ان فعلوا من قبل .. وشعرت انني ، لو اصدرت لهم ساعتها امرا بامتشاق السلاح والزحف ، فما تأخروا .

كان أهم ما خرجنا به من نتائج ، من هذه الحفلة ومن الاجتماعات الاخرى التي عقدناها قبلها وبعدها ، توحيد صفوف الشباب بخاصة والشعب كله بعامة ، لأن حركة الغاء الاستقلال الاداري المالي وتحقيق الوحدة السورية كانت قد قسمت الشعب في الجبل الى القسمين التقليديين الحركة الشعبية او هيئة الشعب الوطنية من جهة ، والحركة المحافظة المتمسكة بالانفصال ، المنتفعة به وبالاحتلال ، من جهة اخرى ، فتوصلنا الى نتائج طيبة واحللنا فكرة : " التحرر من الاجنبي اولا " محل اية فكرة اخرى .

ودرسنا الوضع العام دراسة موضوعية ، علمية ، بالارقام ،والامكانات لا بالعواطف وحدها - فتبين لنا ان العدو يعتمد على قوى ثلاث :

١ - المخابرات وما تملكه من وسائل الدعاية والنشر والاغراءات .

٢ - الانصار وهم الذين تعاونوا مع الاستعمار في مناسبات شتى فصار مصيرهم مرتبطا بمصيره .

٣ - القوات الخاصة المؤلفة من متطوعين من ابناء البلاد والبالغ عددهم في الجبل نحوا من الف ومائة فارس يقودهم ضباط فرنسيون ، قيادة فعلية ،ويقودهم ضباط مواطنون من الجيل القديم الامي الرجعي ، قيادة اسمية ، وهم مسيطرون على القلاع والثكنات ، وفي متناول ايديهم كميات وافرة من الاسلحة والذخائر. وكان يطلق على مجموعتهم خطأ - اسم " المجتمع الدرزي " والاصح ان يقال المجموعة الدرزية ترجمة لكلمة :

وما عدا الضباط الكبار ، كان الضباط وضباط الصف والجنود ينقسمون الى قسمين قسم مثقف واع يدرك ماله وما عليه ويعتبر نفسه جنديا عربيا وينتظر ساعة التحرر بفارغ الصبر، وقسم اخر لا يفقه من امور الدنيا سوى

انه جندي محترف يخدم من يدفع له .

ولمواجهة هذه القوى وضعنا في خطتنا القوى التالية : القوى

آ ـ لتضليل المخابرات ومقاومتها في آن واحد اعتمدنا خطة الكتمان الشديد. فلا يرى احدنا مع ضابط من التنظيم العسكري الا في مناسبة عامة يختلط فيها الجميع او في غرفة خاصة تحت جنح الظلام، وكنا نكتب في الصحف ونذيع البيانات ونقيم الحفلات التمثيلية و الاجتماعات التوعية والتعبئة النفسية ، بحيث لا تسري للمخابرات الفرنسية دعاية حتى تتلاشى وتحل محلها دعاية وطنية قومية .

ب ـ في صفوف الشعب قسمنا الانصار الى فريقين ، مثلما قسم الجنود : الفريق الواعي الممكن التفاهم معه وقد انضم الى صفوفنا والقسم الميؤوس منه الذي اضفناه الى مجموعة الضباط القدماء .

ج ـ في الجيش وصفنا كيف نما التنظيم وقوي ، بحيث لم يأت شهر ايار ١٩٤٥ حتى كان لنا في الجيش اكثر مما للفرنسيين ، ولم يبق لهؤلاء الا الفريق الذي لاخير فيه ولا يرجى نفعه ، ولم يبق علينا بعد حوادث عيد النصر التي سيرد ذكرها الا ان نحدد ساعة الصفر .

حتى أن احدى السرايا كانت منذ شهر نيسان ١٩٤٥ قد تمردت على أوامر القادة الفرنسيين وهي في طريقها الى محافظة اللاذقية لضرب الوطنيين هناك ، فرفضت ان تنفذ ما أمرت به ، وإعلنت العصيان فجردت من سلاحها وتقرر ضمها الى قوات الدرك (لعدم وجود نواة للجيش الوطني بعد) (وجرى تسليمها ملابس رجال الدرك وسلاحهم في حفل شعبي اقيم في شهبة لهذا الغرض (قائد السرية واكثرية منتسبيها كانوا من منطقة شهبة) وبعد تسلم الجيش عادت اليه واعتبرت السرية الاولى في الجيش السوري وليس هناك مجد يساوي هذا المجد المستحق .

حوادث عيد النصر : التمهيد للمعركة الفاصلة :

استسلمت المانية في السابع من ايار ١٩٤٥ فاعتبر اليوم التالي ـ الثامن من ايار عيدا للنصر ، وما كادت فرنسة تتحرر من الاحتلال الالماني حتى عادت لها غطرستها السابقة ، وحمقها التقليدي ، فنسيت ما عانته من ذل الهزيمة ومآسي الاحتلال الاجنبي ، ونسيت ما كانت قد قطعته من وعود ، وابرزت الى حيزالوجود خطة لئيمة غادرة كانت تبيتها ابان الحرب ، بدأتها بتوزيع كيمات هائلة من الذخيرة على انصارها المسلحين من قبلها واوعزت اليهم ان يستهلكوا هذه الذخيرة كلها بحجة الابتهاج بعيد النصر، ومرتبنا اربع وعشرون ساعة مريرة، .. ثقيلة .. بطيئة .. وقحة ، لم يهدأ فيها اطلاق النار في الهواء ، من كل مكان لحظة واحدة ، لا في الليل ولا في النهار ..

وتحول الاحتفال بالنصر الى حفلة للتحدي واستعراض العضلات ، لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، وقد ادى هذا التحدي ـ بين شعب أشهر ما اشتهر به انه يقبل التحدي ويراهن على النتيجة ـ الى نتائج معاكسة تماما للنتائج التي كان يتوخاها المستعمرون ، فلقد استعاد الشعب كامل يقظته وحذره ، استعاد أهبته ،وذكريات ثائرة التي كان قد تناساها طوال سنوات الحرب ، على حد قول الشاعر الاستاذ : سلامة عبيد ، بعد حوادث ايار :

عدت منهوكا فآويناك من حر وقر
وتناسينا نداء الثائر والايام تغري

وواكب هذه الاعمال الاستفزازية نشاط المخابرات الفرنسية ، نشاط بدأت اثاره في المقالات التوجيهية التي أخذت تنشرها بعض الصحف بتواقيع فريق من المأجورين يدعون فيها الى تسوية الوضع على اساس من معاهدة ترتبط فيها سورية بالعديد من الالتزامات نحو فرنسة التزامات ثقافية واقتصادية وعسكرية ، فتبقى لفرنسة امتيازات كثيرة في التعليم وفي اصدار العملة ، وادارة المصارف ، وتحتفظ ببعض المراكز الستراتيجية ، ويقوم احد ضباط المخابرات كما ذكرت سابقا فيلقي محاضرة في نادي الضباط بالسويداء ، يجعل موضوعها : هل يجب على فرنسة ، ان تتخلى عن سورية ام هل يجب عليها ان تبقى فيها .

وكان احتفال المستعمرين بعيد النصر ، على هذا الشكل من التحدي والاستفزاز ، حافزا للشعب العربي في سورية على الارتفاع الى مستوى المعركة ، فبدأت الصحافة الوطنية تعبىء الشعور العام ، وتنبه المواطنين الى خطورة الوضع ، وكما بدأ الفرنسيون باتخاذ الترتيبات العسكرية لخنق كل محاولة يقوم بها الشعب ، بدأ الشعب من جهته باتخاذ الترتيبات للتخلص نهائيا من الاحتلال الفرنسي ، كان الجيل الواعي يدرك ان هذه الفرصة هي فرصته الوحيدة فان هو تركها تفلت من يده ، فلن تعود تؤاتيه مرة اخرى ، وبدأ الغليان في كل مكان ، وبدأت المظاهرات في المدن الرئيسية ، واخذ الطلاب في دمشق يقبلون على مكاتب التطوع ويرتدون اللباس العسكري ، صار الجو جو معركة .فلم يبق هناك اي شك في ان هذه المعركة الفاصلة واقعة بين ليلة وضحاها ، فلقد شبع الشعب من وعود المستعمرين الكاذبة - ولن يحول بينه وبين تحرره حائل بعد اليوم .

هكذا كان الوضع بصورة عامة ، فكيف كان الوضع في الجبل بصورة خاصة ؟

كان قد انقضى بعض عام على خروج الشعب عندنا ظافرا من معركة الغاء الاستقلال الاداري - المالي - وتم بذلك تحقيق خطوة توحيدية قضت على الوضع الانفصالي الذي جهدت فرنسة ربع قرن لاقامته والمحافظة عليه . ولكن تلك المعركة ، كما اظهرت قوة الشعب في تصميمه واندفاعه نحو التحرر والوحدة أظهرت بالوقت ذاته ان هناك فئات كانت تنتفع بالانفصال ، وان هذه الفئات كانت مستعدة للدفاع عن الاوضاع القائمة في قوة وضراوة ، وكان المقدم سارازان المسؤول الفرنسي في هذه المحافظة ، والقائد الفعلي للجيش فيها ، مطمئنا كل الاطمئنان الى الوضع في الجبل ، حتى انه رفع تقريرا قبيل المعركة بايام قليلة قال فيه ان الجبل كله بيده كخاتمه يحركه كيفما يشاء .

وفي الواقع ان اطمئنانه هذا كان يطمئننا الى انه كان يجهل كل شيء عن حقيقة الوضع - وبصورة خاصة انه كان يجهل كل شيء عن حقيقة حركتنا في الجيش .

وقد التقينا في حفل الاستقبال الذي اقامه المحافظ للضباط الانكليز ، والفرنسيين ، وضابط الارتباط الامريكي ، ردا للحفلات التي دعي اليها من قبلهم ،

التقينا في حوار " ملغوم " كانت خلاصته كما يلي :

كنا اربعة او خمسة من الاصحاب نتحدث وقوفا بالقرب من احد الاعمدة ، و اذا بسارازان يتقدم من حلقتنا ويحيينا ، ثم يوجه الي فجأة ، ومن دون مقدمات السؤال التالي :

- ما رأيك في كيفية انهاء الوضع في البلاد بمعاهدة او بلا معاهدة ؟

فأجبته جوابا حاسما مقتضبا :

- بلا معاهدة .

- ولماذا ؟

- لان عهدنا بنكولكم ليس ببعيد فأنتم تعلمون ان معاهدة عام ١٩٣٦ تمت لمصلحة فرنسة ، وكان القسم الاكبر من الشعب غير راض عنها ، وحتى انصارها من دعاة مبدأ " خذ وطالب " ، كانوا يعتبرونها خطوة مرحلية في سبيل الاستقلال ، ومع هذا فقد نكلتم بالمعاهدة ، والغيتم تواقيعكم ، فكيف يكون الامر لو كانت المعاهدة بكليتها لمصلحتنا ؟ان قبولنا بالمعاهدة بعد التجربة الاولى يعني اننا اغبياء لا اكثر ولا اقل ، واننا لا نفيد من التجارب ، وانت تعرف ولا شك ما نعنيه بقولنا : " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين " .

- ولكن الكثيرين من شعبكم يقولون غير ما تقول ، يقولون بضرورة عقد معاهدة مع فرنسة ، وضرورة الابقاء على نوع من الوجود الفرنسي في بلادكم لمصلحة هذه البلاد بالذات .

- من هم هؤلاء الكثيرون من شعبنا ؟

- كثيرون كتبوا بهذا الموضوع، ألم تقرأ مقال فلان ؟ وذكرلي اسم الكاتب .

هنا ، لم أتمالك نفسي من اطلاق ضحكة ساخرة ، فقال سارازان :

- ما الذي يضحكك ؟ ألا يعجبك الاسم ؟

قلت :

- الاسم يعجبني جدا ، ويعجبني اكثر ان يكون هو الذي اخترته شاهدا ودليلا على وقوف اكثرية الشعب الى جانبكم - فأنت تدري انه من عملاء مخابراتكم ، ومن العملاء المكشوفين الذين لا ينخدع بهم الشعب ، وأزيدك علما بأن الرأي العام رأي في هذا المقال قطعة أعدتها المخابرات ونشرتها صحيفة فرنسية اكثر من الفرنسيين ، وذيلت ، بتوقيع عميل ،

قال : في مرارة :

- يظهر أن المقالات التي لا تكون بتوقيع " أبو الحسن " لا تثير اهتمامك ،ولاتكون لها قيمة .

قلت :

- نعم ، ولا ، نعم لأن المقالات التي أكتبها أو يكتبها سواي من هم من الصف الوطني المناضل الصامد ايا كانوا هي وحدها التي تعبر عن حقيقة تفكير الشعب ورغباته واهدافه ، ولأنكم تعلمون بالتجربة ، ان هذه المقالات تصدر عن تفكير اصحابها المستقل ، بلا توجيه ولا رغبة ولا رهبة ، ولا ، لاننا لا نؤمن بالاشخاص ، ولا نعتقد ان الوطنية وقف على أناس دون آخرين ، والا لكانت تزول بزوال القائلين بها - الوطنية ليست احتكارا لأحد أو لفئة ، انما هي ملك شعب بكامله ، صف تتلوه صفوف ، وجيل تعقبه أجيال " .

عندما وصلت الى هذه النقطة ، يظهر ان النقاش كان قد بدا عنيفا و ان صوتينا ارتفعا حتى لفتا انتباه الاخرين فانضم الى الحلقة عدد من الضباط،

وغيرهم من المدعوين ، وكان المحافظ ، صاحب الدعوة قد انضم الينا ايضا وسمع آخر ما قلناه •

فوجه سارازان الحديث الى المحافظ وسأله :

ما رأي سيادتكم في الموضوع ؟

فأجابه المحافظ بلا تردد :

- أنا من رأي فلان - اي من رأيي- فيجب أن ينتهي الوضع ، حسب وعودكم قبل عيد النصر ، من دون معاهدة ، ولا امتيازات؟ فامتعض المسؤول الفرنسي الاول في الجبل، وبلعها ، وغير موضوع الحديث •

وكان موقفالمحافظ مفاجأة سارةلي وضعتها في كفة التعاون الممكن معه في مقبلات الايام •

كانت حفلة استقبالالمحافظ - على ما تخللها من احاديث هادئة حينا ، صاخبة حينا اخر ، وعلى ما دار فيها من نكات لاذعة ضاحكة - كانت نوعا من جس النبض ، او استعراض القوى المتقابلة قبل بدء القتال ، واعتبارا من صباح اليوم التالي أخذ شريط الحوادث يكر في سرعة كبيرة ، لا تدع مجالا للتفكير او الاختيار •

كان علينا ان نتحرك ، كان علينا ان نعبيء الشعب كل الشعب ، مثلما كانت صفوفنا المنظمة معبأة ، لقد كنا نعرف ان السبب الرئيسي في فشل ثوراتنا السابقة هو التجزئة ، فقد كانت تقوم الثورة في احدى المدن ، او المحافظات ، وتحتدم المعارك ، دون أن تهتم المدن او المحافظات الاخرى ، حتى ان بعض المحافظات كانت تقدم لجيش المستعمرين الزاحف على المحافظة المجاورة الثائرة كل التسهيلات الممكنة ، كوسائط النقل والموّن وسواها ، ولم تفكر مدينة او محافظة في تجربة المقاطعة او المقاومة السلبية موّازرة منها للمدينة او المحافظة الاخرى - وان حدث شيء من هذا القبيل فانما كان يحدث دونما دراسة ، اوتوقيت او تخطيط ، بحيث كان يضيع سدى •

ومن هنا درسنا فكرة توحيد المعركة هذه المرة ، لكيلا يقال ان البلاد منقسمة على نفسها من جهة ، ولتجميد كل قوة للعدو في مكانها ، من جهة آخرى • فهو هكذا لا يستطيع ان ينقل قواته من مدينة الى اخرى ، او من محافظة الى أخرى ، في حرية ، ما دام الوضع في جميع المدن والمحافظات متشابها •

كانت سلسلة اجتماعاتنا التوحيدية متتابعة ، وفي احد هذه الاجتماعات ، درس اقتراح بالقيام بزحف مسلح الى دمشق ، حيث كانت الازمة فياوج احتدامها ، مبررين هذا الزحف بكونه ضرورة قومية ملحة للرد على زعم الفرنسيين بأن الجبل بيدهم كالخاتم ، وزعمهم الاخر، الذي طالما تسلحوا به ، وهو ان الوضع الانفصالي ، الذي أقاموه سابقا في الجبل يمثل اختلافا حقيقيا في السكان والتفكير والاهداف ، وأن الجبل لن يثور لثورة دمشق ، ودمشق لن تثور لثورة حلب ، والجزيرة لن تثور لثورة اللاذقية ، ولاقى الاقتراح استحسانا لدى الجميع فأقر •

وعينا صباح اليوم الثاني والعشرين من آيار ١٩٤٥موعدا لتنفيذ القرار • وفي الموعد المقرر كان عدد من الباصات ينطلق من قلب السويداء ، حاملا مجموعة مغامرة من الشباب المسلح بما تيسر من الاسلحة الخفيفة ، متجها الى دمشق وكلها ايمان بأن هذه الانطلاقة المتواضعة ستكون بمثابة الشعلة التي

ستحيل ارض وطننا نارا تحت اقـــدام المستعمرين .

كل العائلات والاتجاهات كانـــت ممثلة : كلهم انصهروا في بوتقة الفكرة القومية السامية : الكفاح من اجـــل تحرير الوطن ، وساعة انطلاقنا مـــن السويداء لم يتأخر رسل التهدئة ووساطة الخير من عملاء الاجنبي ، عن قصد او عن غير قصد ، عن نية سيئة مصممة على خدمة الاجنبي حتى النهاية ، او عن نية طيبة جاهلة لا تعرف لماذا تتحرك ولخدمة من تتحرك ، المهم لديها المحافظة علـــى الوضع كما هو ، ليس في الامكان أبدع مما كان ، ولا تريد التغيير خوفا من أن يجيء هذا التغيير بأشياء جديدة مجهولة ليست في مصلحتها - جاء رسل التهدئة ووساطة الخير هؤلاء ليثنونا عن عزمنا بالرجاء ثم بالزجر والتقريع - ثم بالتهديـــد والوعيد .

ولكننا كنا نصدر عن تخطيط وتصميم وكنا قد درسنا جميع الاحتمالات وانطلقنا غير مكترثين للعنات والدعوات الشريرة التي ودعنا بها .

ولدى وصولنا الى ازرع ، وهي اول موقع عسكري فرنسي في طريقنا الى دمشق وجدنا حاميتها مستنفرة ، وبلبـــاس الميدان ، واعترضنا قائد الحامية وهو برتبة نقيب ، واخطرنا بأن نعود ، والا فانه سيعيدنا بقوة السلاح ، وجـــاء يخاطبنا بواسطة ترجمان ، فأفهمنـــاه اننا لسنا بحاجة الى مترجم ، ولايعتقدن أننا حفنة من الاميين ، بل تحت ثيابنا الوطنية حملة شهادات جامعية وثانويـــة ودور معلمين - اننا مجموعة من الشباب المثقف المناضل الذي يعرف ما له وما عليه ، قلنا له تقريبا بالحرف الواحد ما يلي : " اننا ماخرجنا من السويداء للتنزه ، وما خرجنا ولنا أمل فـــي ان نعود أحياء ، ونحن انما خرجنا ووجهتنـــا دمشق - ولكننا لن نكون مستائين اذا ما حدث لنا حادث في ازرع ، واننا كنا نتوقع مثل هذا الحادث ، ان لم يكن في ازرع ، ففي سواها ، على أننا صرنا نفضل ان تبدأ معركتنا في ازرع ، الواقعة عند سفح الجبل تماما ، لأن مثل هذه الحماقة ترتكبونها ستكون اقرب الطرق الـــى زج الجبل كله في المعركة ، ولا نعتقد انكم تجهلون ان الجبل سيبلغه الخبر فـــي دقائق معدودات ، وأنه لن يترك دمـــاء ابنائه تذهب هدرا على مقربة منه ، واذا كنتم واثقين من قوتكم فاتركونا نمـــر بسلام ولن تعدموا وسيلة لوقف تقدمنا في غير هذا المكان ، قبل دمشق أو في دمشق ذاتها ، فالخيار لكم "..

وعندما رأى قائد الحامية تصميمنا ورأى ان الاغلبية الساحقة من الشـــباب المثقف الواعي الذي يعرف ما يريد والى أين يسير ، ورآنا نخاطبه بلسانه خطـــاب المؤمن بحق أمته في حياة العزة والكرامة أمر جنوده بفتح الطريق امام السيـــارات فتابعنا السير واجتزنا كل محافظة حوران (درعا) تقريبا حتى بلغنا نقطة تقع بين الصنمين وغباغب : وهناك التقينـــا عددا من السيارات الحكومية أشار لنـــا من فيها بالوقوف فوقفنا وترجلـــوا ، فترجلنا ، واذا نحن امام وفد قـــادم خصيصا لملاقاتنا مؤلف من مدير الداخليـــة العام ، وقائد الدرك العام ، ومحـــافـــظ الجبل ، وقائد درك المحافظة ونوابها ، وطلب الوفد الينا باسم رئيس الجمهورية ان نعود : " لأن المصلحة الوطنية تقضي بذلك ، ولأنه اي رئيس الجمهورية يقـــدر

الظروف وهو في قلب دمشق - العاصمة - اكثر مما نقدرها نحن ، وان الجيش الفرنسي حشد عددا من قواته في الكسوة لمنعنا من دخول دمشق ، ولأن الحكومة لا تريد ان تقع المعركة مصادفة ، بل تريد أن تختار هي ساعة المعركة .

ولأن انباء هذا الزحف قد وصلت الى دمشق وطيرتها وكالات الانباء الى مختلف انحاء العالم ، وذكرت هذه الانباء ان عددكم يقدر بالالاف ، وبات الفرنسيون في قلق زائد ، واحدثت هذه الانباء اثرا بعيدا في جميع الاوساط السياسية والعسكرية ، فاذا تابعتم سيركم وانتم قلة فسيزول هذا الاثر وتأتي النتيجة عكس مايتوخى الجميع ".

فمانعنا واظهرنا تصميمنا على الوصول الى دمشق ، لأن الرجوع الى السويداء سيكون له اثر سيء ايضا - ونحن يهمنا الموقف في السويداء كثيرا لان الفرنسيين يعتبرون الجبل بيدهم ورقة رئيسية رابحة .

وبعد أخذ ورد اقترحنا على الوفد حلا وسطا وهو أن نعود ، ولكن ليس وحدنا ، بل يرافقنا الوفد الى السويداء وهناك يرى الناس اننا انما عدنا تنفيذا لرغبة رئيس الجمهورية ، وبالتالي تلبية لنداء المصلحة الوطنية العليا ، ويرى الناس أن الحكومة مهتمة بالوضع في جميع المحافظات ، ما دامت ترسل مثل هذا الوفد ، في مثل هذه الظروف ، الى السويداء ، ويرى الناس ان هؤلاء الشبان الذين خرجوا من السويداء صباح هذا اليوم لم يكونوا على ضلال ، ولم يكونوا كما مهملا ، مادامت الحكومة قد اهتمت بأمرهم مثل هذا الاهتمام ، ونحن بأمس الحاجة الى التفاف المزيد من الجماهير حول حركتنا .

وعدنا ، تتقدمنا سيارات الوفد الحكومي ، وما بلغنا مداخل السويداء حتى كانت تغلي كالبركان - لقد خرجت المدينة على بكرة ابيها للقائنا ، واشتركت الالاف في اجتماع شعبي سادته روح من الحماسة الفناها في المناسبات القومية الخطيرة ، وتبودلت الخطب بين الوفد والاهلين ، وأطلقت شعارات التحرر والوحدة والجلاء ، ملء الفضاء ، وبتنا ليلتنا تلك مطمئنين الى الغد كل الاطمئنا ن .

وجاءت الصحف السورية واللبنانية في اليوم التالي تحمل الينا في صفحاتها الاولى ، وجعلت منه عناوينها الرئيسية ، فازداد الشعب حماسة على وأصبح الموقف في منتهى القوة والتماسك.

سعيد ابو الحسن

رأي ابن سينا في السعادة

جميل صليبا

السعادة من الامور التي فكر الانسان فيها من القدم فهام بها وعشقها ، ولا يزال اليوم يبحث عنها كما يبحث الجائع عن الطعام ذلك لان ارتقاء الصناعة والرفاه لم يحسن حالة الانسان ولا قربه من البهجة التي ينشدها والسعادة التي يحلم بها .
فالالم الذي كان يمزق الاحشاء ويضني النفوس في الماضي لا يزال اليوم يمزق احشاء الملايين من الناس والغم الذي ساور نفوس الاقدمين زاد بازدياد حاجات الحياة وكثرة اسباب المعاش وتعقدها . نعم ان انسان اليوم أحسن حالا من الانسان الاول ولكنك لا تزال ترى على وجه الارض اناسا يتضورون جوعا ويئنون تحت عبء البؤس والشقاء .

لقد بحث الفلاسفة منذ القدم في الطريق التي يجب على الانسان سلوكها للوصول الى السعادة وهم اليوم لا يزالون يبحثون ايضا عن طريقة يبددون بها ما يحيط بالانسانية من الظلمات . لكل زمان فلاسفة ولكل فيلسوف احلام ولكل خيال حقيقة . كل فيلسوف يضع في مصباح الحياة ذبالة جديدة وترتيبا جديدا فاما ان يصبح نور الحياة واضحا بهذا الزيت الجديد واما ان يمسي ضئيلا . فما هو النور الجديد الذي وضعه ابن سينا في طريق الوصول الى السعادة ؟

١ - الخير مقتضى بالذات والشر مقتضى بالعرف :

ان رأي الشيخ الرئيس في السعادة تابع لرأيه في العناية الالهية ، وقد عرف ابن سينا هذه العناية الالهية بقوله :
" العناية هي احاطة علم الاول بالكل وبالواجب ان يكون عليه الكل حتى يكون على أحسن نظام "" ومعنى ذلك ان العناية هي علم الاله بكل ما في الكون من الاشياء وبكل ما يجب أن تكون عليه ليتم عليه اتساق الوجود ويكون الخير فيه غالبا على الشر ، وهذا يدل على ان ابن سينا كثير التفاؤل، فهو يعتقد ان الخير يفيض من المبدع الاول على هذا العالم .

كأن الموجودات كلها سابحة في بحر من الخير ، كل منها ينال من الخير ما هو جدير به وما هو لائق له . وهذا النظام هو أحسن نظام يمكن ان يكون عليه الوجود، وهذا العالم هو أحسن ما يمكن ان يتصوره العقل ويدركه الخيال .
ولكن كيف وجد الشر في هذا العالم وما هي حكمة الله من وجوده ، كيف فاض الشر من المبدع الاول وهو خير مطلق . هل تتولد الظلمة من النور ، ام هل ينشأ النقص عن الكمال ، الجواب على ذلك ان الشر ليس الغالب في الوجود لان الخير ، كما يقول ابن سينا

مقتضى بالذات اما الشر فمقتضى بالعرض ، ومعنى ذلك ان الاله لا يريد الا الخير ، وهو ينفح الوجود بنسماته ولم يتولد الشر الا من المادة ولذلك كان الشر غير موجود في الافق الاعلى بل هو موجود دون فلك القمر اي في عالم الكون والفساد.

ولكن لماذا وجد الشر ؟ ألم يكن في وسع المبدع الاول ان يوجد خيرا مطلقا مبرأ من الشر، ألم يكن في وسع المدبر الحكيم أن يبدع اللذة ولا يوجد الالم ، أن يبدع النور ولا يوجد الظلمة ؟ .. بلى ان ذلك ممكن ، ولكن في غير هذا النمط من الوجود . الا ان هذا العالم يقتضى وجود الخير مع الشر ، وهو عالم القوة والفعل وحيث توجد القوة لا بد من وجود الامكان والنقص اي لا بد من وجود الشر . الا ان هذا الشر هو أقل ذيوعا من الخير . ولو كان الشر في شيء من الاشياء اكثر من الخير لامتنع وجود ذلك الشيء ، لان الخير من طبيعة الوجود ، والشر من طبيعة العدم . فالخير الكلي يقتضي وجود الشر الجزئي ولامعنى للخير بدون الشر كما انه لا معنى للنور بدون الظلمة .

ولكن لماذا خلق العالم على هذا النمط ؟ أليس من الممكن ان يكون الوجودكله خيرا مطلقا. لا محل لهذا السؤال في فلسفة ابن سينا لانه جعل الانسان في فهم حقيقة الخيروالشر قاصرا عن ادراك حكمة الخالق . قال (لو كان امر الله تعالى كأمرك وصوابه كصوابك وجميله كجميلك وقبيحه كقبيحك ، لما خلق ابا الاشبال أعصل الانياب احجن البراثن لايغذوه العشب " . فالاله لا يراعي ما نراعي نحن في احكامنا الضيقة وأحلامنا القاصرة بل ينظر الى الوجود الكلي ونحن لا ننظر الا الى الوجود الجزئي .

٢ ـ السعادة ليست في اللذة

الانسان قادر بعقله ان يميز بين الفضيلة والرذيلة ، فيميل الى الخير ويتجنب الشر ولكن ما هو الشيء الذي نبحث عنه جميعاونرغب فيه ؟ الاحياء كلها ترغب في اللذة . ولكن هل يمكن ان يقال ان السعادة في اللذة ؟

ان رأي ابن سينا في اللذة ، لا يختلف بالجملة عن رأي اريسطو القائلأن اللذة في الفعل . لكل فعل قوة تحدثه ولكل قوة من القوى النفسانية لذة تخصها ، مثال ذلك ان لذة الغضب الظفر ، ولذة الوهم الرجاء ، ولذة الحفظ تذكر الامور الماضية فالشعور بكل ما يلائم هذه القوى يولد لذة ، وهذه اللذة هي ادراك الكمال ، وكلما كان الكمال الذي تحصل عليه النفس اتم وافضل كانت اللذة التي ندركها ابلغ واشد .

على أن ابن سينا لا يرى السعادة فياتباع كل لذة بل يراها في الكمال والخير يدل على ذلك انقسام اللذات عنده الى عالية وخسيسه . فالجاهل الذي لا يدرك اللذات العالية ولا يشعر بها اشبه بالاصم الذي لا يدرك الالحان اللذيذة والاكمه الذي لا يشعر بالالوان الجميلة . وكيف تقاس هذه اللذة العالية بتلك اللذة الحسية الخسيسة . نعم اننا في عالم المادة المظلم يمنعنا حجاب الحس منادراك المثل الاعلى ولكنا اذا خلعنا ربقة الشهوة والغضب من اعناقنا وطالعنا شيئا من تلك اللذة السامية ، فحينئذ ربما تخيلنا منها خيالا طفيفا خفيفا : فاللذات المعنوية اذن أفضل من اللذاتالمادية .

وكثيرا ما يفضل الانسان الالـم الفادح على اللذة السانحة. فاذا علم ان اللذة ستسوقه الى افتضاح او خجل او تعبير أو شوق أعرض عنها. ولذلك كانت الغايات العقلية السامية أكرم على النفس من الشهوات الخسيسة التي يحتقرها العاقل ويستخف بها الحكيم. أما النفوس الخسيسة فانها لا تدرك الا القريب ولا تبتهج الا بالمحسوس ولا تتطلع الى مافي الامور العالية من اللذات الخالدة ، قال ابن سينا : اذا كنت في البدن وشواغله وعلائقه ولم تشتق الى كمالك المناسب او لم تتألم بحصول ضده فاعلم ان ذلك متك لا منه ".

يريد بذلك ان فقدان الاشتياق الى الكمال وعدم التألم من الجهل راجع الينا لا الى المعقولات. لأن اشتغال النفس بالشهوات واتصالها بالمادة يمنعانها من الالتفات الى الملأ الاعلى ، قال : " ان النفوس السليمة التي هي على الفطرة ، اذا سمعت ذكراروحانيا غشيها غاش شائق لا يعرف سببه واصابها وجد مبرح ولذة مفرحة يفضي ذلك الى حيرة ودهش ".

فالنفوس قادرة اذن بما فيها من الاستعداد والشوق ان تصل الى شيء من السعادة في هذه الدنيا وذلك بالتأمل والتفكير في المبادىء الروحانية والاشتياق الى الخلود.

٣ - مراتب النفوس البشرية :

قسم ابن سينا النفوس الى مراتب وقال انها على اختلاف أنواعها قادرة على ادراك اللذة الحقيقية قبل الموت.

ان أجل سعيد وأحسن مبتهج بذاته هو المبدع الاول ويتلوه في مراتب السعادة الجواهر العلوية التي تبتهج بذواتها وتتأمل خالقها. فكلما كانت الجواهر قريبة من المبدع الاول كانت اكثر كمالا وأشد عشقاواشتياقا ،وكلما ابتعدت عنه قلت سعادتها وخف كمالها.

ثم يتلو مراتب الجواهر العلوية مرتبة العشاق المشتاقين فهم من حيث هم عشاق قد نالوا قسطا من الكمال وهم بما حصلوا عليه من الكمال مبتهجون سعيدون. نعم انه قد يكون لهم أصناف من الاذى من حيث هم مشتاقون ، لأن الشوق يولد العذاب الا ان هذا الاذى الذي يصبهم لذيذ ، وهذا الشوق الذي يحرك نفوسهم عذب.

ثم يتلو هذه النفوس نفوس اخرى بشرية مترددة بين جهتي الربوبية والسفالة لا هي في المثل الاعلى ولا هي في الحضيض ، بل تارة تسمو وتارة تنحط من درجة الى درجة.

ويتلو هذه المرتبة مرتبة أخرى هي في الحضيض الاسفل من المادة ، قال ابن سينا : " وهي مرتبة النفوس المغموسة في عالم الطبيعة المنحوسة التي لامفاصل لرقابها المنكوسة ، واصحاب هذه النفوس هم بدون شك أشقى المخلوقات واكثرهم بؤسا وأسوأهم حالا.

٤ - مقامات العارفين :

ثم ان ابن سينا بعد ان ذكر انواع ابتهاج الموجودات بكمالاتها المختصة بها عاد الى ذكر أهل الكمال من النوع الانساني فقال : " ان للعارفين مقامات ودرجات يخصون بها وهم في حياتهم الدنيا دون غيرهم فكأنهم وهم في جلابيب من ابدانهم قد نضوها وتجردوا عنها الى عالم الدس ولهم امور خفية فيهم وامور ظاهرة عنهم يستنكرها

من ينكرها ويستكبرها من يعرفها، ان هؤلاء العارفين هم المتصوفون الذين يتوصلون بالرياضة الى مشاهدات يعجز عن ادراكها الوهم والمتصوفون في رأي ابن سينا هم اهل البهجة والسعادة في هذه الحياة .

وقد ذكر ابن سينا صفات العارف المتخلي عن شواغل البدن بالفاظ ساحرة فقال :

العارف هش بش بسام يبجل الصغير من تواضعه كما يبجل الكبير، وينبسط مع الخامل كما ينبسط من النبيه ، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شيء يرى فيه الحق، ولا فرق عنده بين الكبير والصغير ولا يعرف الطمع سبيلا الى قلبه وهذا الخلق هو خلق الرضا والقناعة فلا يخاف العارف من هجوم شيء و لا يحزن على فوات شيء بل يفرح ويبتهج بما آدركه كما يبتهج العاشق بالوصول الى حبيبه .

العارف لا يعنيه التجسس ولا التحسس ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة واذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معير وذلك لشفقته وحبه .

العارف شجاع وكيف لا وهو بمعزل عن خوف الموت ، وجواد وكيف لا وهوبمعزل عن محبة الباطل ، وصفاح للذنوب وكيف لا ونفسه اكبر من ان تجرحها ذلة بشر ونساء للاحقاد وكيف لا وذكره مشغول بالحق

العارف يفضل التقشف على الترف ولربما ارتاد البهاء في كل شيء واصغى الى الزينة وأحب من كل جنس أكرمه .

العارف هو المنصرف بفكره الى الافق الاعلى والمستديم الشروق النور عليه . والزهد عند العارف تنزه والعبادة رياضة لا يطلب منها ثوابا ولا يتجنب بها عقابا وهو يريد الحق لا يشيء غيره ولا يؤثر شيئا على عرفانه به وتعبده له .

للعارف في الوصول الى الملأ الاعلى درجات وهذه الدرجات تنقسم الى قسمين :

درجات السلوك ودرجات الوصول .

فأول درجات السلوك درجة الارادة وهي ما يعتري المتطلع الى العالم الروحاني من الرغبة في الاعتصام بالعروة الوثقى والاتجاه نحو الحق ويسمى صاحب هذه المرتبة بالمريد .

ثم تأتي درجة الرياضة لأن المريد محتاج اليها وهي عبارة عن نهي النفس عن هواها وامرها بطاعة مولاها ومنعها من الالتفات الى سوى الحق .

ثم اذا بلغت الارادة بالمريد حدا اعلى من الاول سنحت له خلسات يطلع بها على نور الحق وهي خلسات لذيذة كأنها بروق تومض اليه ثم تخمد عنه وتسمى هذه الخلسات عند المتصوفين اوقاتا ، وقد يرتقي المريد الى اكثر من ذلك في الرياضة فيرى الحق في كل شيء .

ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغا يصير فيه المخطوف مألوفا والوميض شهابا ويتم له معارفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة .

ثم يرتقي من مرتبة ادنى الى مرتبة أعلى حتى يعبر درجة الرياضة ويتقرب من الله فيتمثل فيه جمال المبدع وتقضي عليه اللذات الحقيقية .

ثم انه ليغيب عن نفسه فلا يرى الا المعبود ولا يلحظ الا جمال الحق وينسى نفسه . وان لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة لا من حيث هي ذات زينة . وهذه الدرجة هي أعلى درجات السلوك ويليها درجات الوصول وهي تنتهي عند بعض المتصوفة الى درجة المحو والفناء

غير ان ابن سينا لم يصف لنا هذه الدرجات بل قال : " ان هذه الدرجات لا يفهمها الحديث ولا تشرحها العبارة ولا يكشف المقال فيها غير الخيال ومن احب أن يتعرفها فليتدرج الى ان يصير من أهل المشاهدة دون المشافهة ومن

الواصلين الى العين دون السامعين الى الاثر " وهناك لا يبقى كماقال الطوسي واصف ولا موصوف ولا سالك ولا مسلوك ولا عارف ولا معروفاو كما قال الغزالي في المنقذ من

الضلال ، هناك درجات يضيق عنها نطاق العقل ، ولا يحاول معبر ان يعبر عنها بل الذي لا بسته تلك الحالة لا ينبغي ان يزيد على ان

يقول :
وكان ماكان مما لست أذكره
فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر
تلك هي مقامات العارفين الذين يرتقون من نطاق الطبيعة الضيق الى فضاء العقل الواسع وكل ما ذكرته حتى الان من احوالهم دليل على ان النفس قادرة في مذهب الشيخ الرئيس ان تتناول اوقاتا من السعادة الحقيقية وهي في البدن • وذلك بتكميل قوتها النظرية بالعلوم وتهذيب قوتها العملية بالفضائل التي اصولها العفة والشجاعة والعدالة ليس باتباع اللذة الحسية والشهوة العمياء بل بايثار اللذة العالية المطابقة للحكمة • وهذا مايرفع النفس ويبلغ بها درجات الكمال حتى لقد يصرفها عن هذا العالم الدنيء ويرتقي بها الى .الملأ الاعلى حيث تستطيع ان ترى الحق وتتصل به وتدرك من السعادة درجة لا يمكن وصفها •

*

أما في الحياة الثانية فان النفس قد تدرك السعادة الحقيقية وقد تشقى شقاء موقتا او شقاء ابديا • فسعادة النفس الحقيقية بعد الموت تنشأ عن تصور الانسان للمبادىء الروحانية تصوراحقيقيا وتصديقه بها تصديقا يقينيا على الوجه الذي ذكره ابن سينا في مقالة المبدأ والمعاد • وكأنه ليس يتبرأ الانسان عن هذا العالم وعلائقه الا ان يكون أكد العلائق مع ذلك العالم فصار له شوق وعشق الى ما هنالك يصده عن

الالتفات الى ماخلفه • وهذه السعادة الحقيقية كما قلنا لاتتم الا باصلاح الجزء العملي من النفس•

واذا قايسنا بين احوال الناس في الاخرة وجدناهم على ثلاثة احوال •
الحال الاول هو حال البالغين في فضيلة العقل والخلق مرتبة عالية فهؤلاء لهم الدرجة القصوى من السعادة •
والحال الثاني هو حال الجهال الا ان جهلهم ليس مضرا لهم فهم من أهل السلامة وان كانوا ليس لهم ذخر من العلم •
والحال الثالث هو حال الذين كثر شرهم وعظم اذاهم في الدنيا والاخرة وهؤلاء ليسوا من أهل النجاة •
فالنجاة ليست اذن مصروفة عن أهل الجهل ، ان سعادة العلماء اعلى مرتبة من سعادة الجهال كما ان سعادة الجهال افضل من شقاوة الاشرار • وخير للانسان ان يكون جاهلا من ان يكون عالما شريرا ، لأن البلاهة العمياء أحسن من الفطانة البتراء • فالذي يحصل العلوم ويعرف الكمال ويشتاق اليه من غير أن يتصف به أو

يعمل للوصول اليه أسوأ حالا من اصحاب النفوس الساذجة لان الجاهل غير عارف بالكمال غير مشتاق اليه ولذلك كان العذاب اقرب الى العالم الشرير منه الى الساذج الصالح ٠
فاذا كانت النفس شديدة الشوق

الى ما اعتقدته من احوال الحياة زكية كريمة قليلة العلائق بالبدن فانها اذا انفصلت عن الجسد اتصلت بكمالها الذاتي وتمتعت باللذة الحقيقية وتبرأت عن النظر الى ما خلفها وادركت السعادة الحقيقية ٠ وان كان لها التفات الى ماخلفته في الدنيا تأذت بالحسرة عليه ٠ ان الالتفات الى أحوال الدنيا وتذكر مقتضيات البدن هو شأن النفوس الرديئة التي تتخيل بعد الموت جميع أنواع العقاب الذي صور لها في الدنيا وتقاسيه بالصورة الخيالية التي لا تقل تأثيرا عن الصورة الحسية ٠ اذن فابن سينا يعتقد أن الانسان سيلاقي بعد الموت سعادة نفسانية وان العذاب الذي سوف يقاسيه عذاب روحاني ٠

٦ - سلامان وابسال

ويجدر بنا وقد اوضحنا أسباب سعادة النفس في الدنيا والاخرة ان نستشهد بقصة (سلامان وابسال) التي ذكرها الشيخ الرئيس ، في كتاب الاشارات ، لأن هذه القصة هي أحسن رمز لا بل أوضح صورة يمكن بها بيان سعادة النفس ودرجاتها وكيفية محاربتها للشهوات والتجرد عنها ٠ والقصة التي نذكرها هنا ليست قصة سلامان وابسال التي قيل ان حنين ابن اسحق نقلها من اللغة اليونانية الى العربية وترجمها المسيو (كارا - دوفو) في كتابه عن ابن سينا الى اللغة الفرنسية ، فان هذه القصة التي اخترعها احد العوام كما يقول الطوسي ، ليست من كلام الشيخ الرئيس ولا هي مطابقة لما ذكره في الاشارات ، وأما القصة الحقيقية التي اشار اليها ابن سينا فهي التي اورد ذكرها أبو عبيد الجزجاني في فهرس تصانيف الشيخ الرئيس ونقلها عنه شارح الاشارات ٠

وحاصلها ان سلامان وابسال كانا شقيقين وكان أبسال أصغرهما سنا وقد تربى بين يدي أخيه ونشأ جميل الصورة عاملا متأدبا عالما عفيفا شجاعا ٠ فعشقته امرأة سلامان اخيه وقالت لزوجها اخلطه بأهلك ليتعلم منه اولادك فأشار عليه سلامان بذلك وأبى أبسال مخالطة النساء فقال له سلامان ان امرأتي بمنزلة ام لك فرضي أبسال بذلك ثم أكرمته زوجة سلامان

واظهرت له عشقها في خلوة فانقبض ابسال من ذلك ٠ ولما علمت زوجة سلامان ان ابسالا لا يطاوعها قالت لزوجها زوج اخاك باختي ، ثم قالت لاختها اني ما زوجتك بابسال ليكون لك خاصة بل لكي اساهمك فيه ٠ وليلة الزفاف جاءت امرأة سلامان بدلا من اختها وبادرت تعانق ابسالا وتضم صدره الى صدرها فلاح برق فب السماء ابصر بضوئه وجهها فأزعجها وخرج من عندها ، وطلب من اخيه ان يعطيه جيشا فتولى قيادته وحارب حتى فتح كثيرا من البلاد شرقا وغربا ، ثم رجع الى وطنه مكللا بالنصر وهو يحسب أن امرأة أخيه سلامان قد نسيته ولكنها عادت الى حبها له ورجعت الى معاشقته ،فأبى ذلك وأزعجها ثم ظهر لهم عدو فوجه سلامان اخاه ابسالا اليه الا ان امرأة سلامان فرقت في رؤساء الجيش اموالا ليرفضوه في المعركة ففعلوا وظفر به الاعداء وتركوه جريحا وبه دماء فعطفت عليه

مرضعة من حيوانات الوحش والقمته حلمة ثدييها واغتذى بذلك الى ان انتعش وعوفي ورجع الى سلامان وقد احاط به الاعداء واذلوه وهوحزين من فقد أخيه فادركه ابسال وأخذ الجيش والعدة وكر على الاعداء وبددهم وأسر عظيمهم وسوى الملك لاخيه ثم اتفقت المرأة مع الطابخ والطاعم واعطتهما مالا فسقياه السم واغتم من موته اخوه واعتزل من ملكه وفوضه الى بعض معاهديه وناجى ربه فأوحى اليه بحقيقة الامر فسقى المرأة والطابخ والطاعم ما سقوا اخاه فماتوا جميعا ٠

وتأويل هذه القصة ان سلامان هو النفس الناطقة وابسالا هو العقل النظري او هو درجة النفس في العرفان وامرأة سلامان هي القوة البدنية الامارة بالشهوة والغضب وعشقها لابسال هو ميلها لتسخير العقل كما سخرت سائر القوى ، وإباء ابسال هو تطلع العقل الى عالمه واخت امرأة سلامان هي الملكة العملية والبرق اللامع من الغيم المظلم هو الخطفة الالهية التي تسنح للانسان اثناء الاشتغال بالامور الفانية وازعاج أبسال للمرأة هو اعراض العقل عن الهوى ٠ وفتحه البلاد هو اطلاع النفس بالقوة النظرية على الملكوت ورفض الجيش له اهو انقطاع القوى الحسية والخيالية عند عروج النفس الى الملأ ، وتغذيته بلبن الوحش اشارة الى افاضة الكمال اليه عما فوقه من المبادئ والطابخ هو القوة الغضبية والطاعم هو القوة الشهوانية وتواطؤهم على اهلاك ابسال اشارة الى اضمحلال العقل في شقوة العمر واهلاك سلامان اياهم ترك النفس استعمال القوى البدنية في آخر العمر ، واعتزاله الملك وتفويضه الى غيره انقطاع تدبير النفس الناطقة عن البدن ومفارقتها لهذا العالم ٠

٧ - رسالة الطير

ومن الرسائل التي تدل على هذا التجرد عن المادة وتدعو الى ضرورة التطلع الى المثل الاعلى رسالة الطير التي طبعت مرارا ونقلها الموسيو (مهرن) الى اللغة الفرنسية في مجموعة رسائل ابن سينا الصوفية (١)٠

يقول ابن سينا : " هل لاحد من اخواني في ان يهب لي من سمعه قدر ما القي اليه طرفا من اشجاني عساه ان يتحمل عني بالشركة بعض أعبائها " ٠ وهؤلاء الاخوان الذين سيحملون عنه بالشركة بعض اشجانه هم الاخوان الذين جمعتهم القرابة الالهية والفت بينهم المجاورة العلوية ولاحظوا الحقائق بعين البصيرة " وجلوا الوسخ ورين الشك عن السريرة " وهؤلاء الذين ألفوا المجاورة العلوية هم الذين انسلخوا عن المادة وتجردوا عن الشهوات بايمانهم وعقلهم :

" ويلكم اخوان الحقيقة انسلخوا عن جلودكم " (صفحة ١١٥ جامع البدائع) ومن عجب ان الانسان الذي نورت جبلته بالعقل لا يزال يبذل الطاعة للشهوات ويضيع على استثارها صورته : " ويلكم اخوان الحقيقة لا عجب ان اجتنب ملك سوء وارتكبت بهيمة قبيحا بل العجب من البشر اذا استعصى على الشهوات " ٠

واليك بعض ما جاء في رسالة الطير

" برزت طائفة تقتنص فنصبوا الحبائل ورتبوا الشرك وهيأوا الاطعمة وتواروا في الحشيش وأنا في سربة طير لحظونا فصفروا مستدعين فأحسنا بخصب وأصحاب ماتخالج في صدورنا ريبة ، و لا زعزعتنا عن قصدنا تهمة فابتدرنا اليهم مقبلين وسقطنا في خلال الحبائل اجمعين ، فاذا الحلق

ينضم على اعناقنا والشرك يتشبث باجنحتنا والحبائل تتعلق بأرجلنا ففزعنا الى الحركة فما زادتنا الا تعسيرا فاستسلمنا للهلاك وشغل كل واحد منا ماخصه من الكرب عن الاهتمام لاخيه - واقبلنا نتبين الحيل في سبيل التخلص زمانا حتى انسينا صورة أمرنا واستأنسنا بالشرك واطمأننا الى الاقفاص." وهذا شأن النفس عند اتصالها بالجسد لانها تألف كما يقول في قصيدة النفس مجاورة الخراب البلقع ويصدها الشرك الكثيف عن بلوغ غايتها، ثم ان هذا الطير الذي استأنس بالشرك ليلحظ مرة رفقة من الطير قد اخرجت رؤوسها واجنحتها عن الشرك وبرزت عن اقفاصها تطير وفي ارجلها بقايا الحبائل فيقول " فذكرتني ما كنت أنسيت ونغصت علي ما الفته فكدت انحل تأسفا او ينسل روحي تلهفا " ثم يناديهم ويناشدهم بالصحبة المصونة والعهد المحفوظ فلا يتقربون منه الا بعد ان ينفي عن صدورهم الريبة ثم يغتنم النجاة ويطالبهم بتخليص رجله عن الحبال فيقولون له لو قدرنا عليها لابتدرنا اولا وخلصنا أرجلنا واني شفيت العليل. ان هذه الحبال كما يقول بعد ذلك لن يقدر على حلها الا عاقدوها ثم يطير حتى يبلغ جبل الاله ثم يشرد على الراحة بعد الانبتات ثم يطير حتى يبلغ المدينة التي تبوأها الملك الاعظم فيخرج من صحن ويدخل في صحن حتى يرفع له الحجاب ويلحظ الملك في جماله الذي لا يمازجه قبح، " وكل كمال بالحقيقة حاصل له وكل نقص ولو بالمجاز منفي عنه، كله لحسنه وجه ولجودة يد، من خدمه فقد اغتنم السعادة القصوى، ومن صرمه فقد خسر الاخرة والدنيا " وهكذا فان السعادة القصوى هي في نسيان الشهوات وخدمة الاحد الحق، وقد ختم ابن سينا رسالة الطير بقوله:

" وكم من اخ قرع سمعه قصتي فقال أراك مس عقلك مس أو ألم بك ألم ولا والله ماطرت ولكن طار عقلك وما اقتنصت بل اقتنص لبك، انى يطير البشر أو ينطق الطير، كأن المرار قد غلب في مزاجك واليبوسة استولت على دماغك وسبيلك أن تشرب طبخ الافثيمون وتتعهد الاستحمام بالماء الفاتر العذب وتستنشق بدهن النيلوفر وتترفه في الاغذية وتستأثر منها المخصبة وتجتنب الباه وتهجر السهر وتعل الفكر، فانا قد عهدناك فيما خلا لبيبا وشاهدناك فطنا ذكيا والله مطلع على ضمائرنا فانها من جهتك مهتمة، ولاختلال حالك حالنا مختلة. ما اكثر ما يقولون واقل ما ينجح وشر المقال ماضاع ".

وقصارى القول ان هذه القصة كقصة حي ابن يقظان وقصة سلامان وابسال تدل على ان النفس لا تنال السعادة الحقيقية الا باعراضها عن الشهوات وتركها اللذات، وتطلعها الى المثل الاعلى، لان لذة التفكير والتأمل تشبه لذة العبادة.

ان مذهب ابن سينا في الخير مذهب التفاؤل ونظريته في اللذة نظرية الكمال ورأيه في التجرد عن المادة وشواغلها للوصول الى السعادة الحقيقية هو رأي المتصوفين كأن سعادة الانسان في الدنيا لا تكون الا باعراضه عن الدنيا وعدم التفكير في اوهامها

ان فلسفة ابن سينا مضيئة بنور التصوف والتقشف ولا اظن ان هذا النور الضئيل قد اظلم في

العصر الحاضر بل ان مدينة هـذه الايام قد تلوثت بادران المادة ، ولعل الادران لا تزول الا اذا انغمست ذبالة الحياة في شيء من زيـت التصوف ، ماذا يفعل البطالون ، ماذا يفعل الجائعون ؟ افيستمرون على عبادة المادة والمادة لاتغذيهم ليرجعوا الى الحياة الروحية الى الحياة الفكرية ، لعل في الحياة الروحية غذاء لهم ..
وهذه الحياة الروحية لا تنافي التقدم والانتاج والاخذ باسباب المدنية . ان الشيخ الرئيس يؤمن بالعقل والعلم ويعتقد ان السعادة القصوى لا تكون الا عن طريق العلم. وهذه نتيجة طبيعية لمذهب التفاؤل فلنرحب اذن بآراء هذا الحكيم الذي هام بالمثل الاعلى وآمن بالفكر وكان كثير الثقة بالفطرة الانسانية .

جميل صليبا

أضواء على
حركة التعريب المعاصرة في سورية

بقلم د : رفيق حسن الحليمي

أود ان أقدم بين يدي هذا المقال ما دفعني الى اختياره والكتابة فيه، وهو ان بعض اقلام الكتاب والمفكرين تناولت هذا الموضوع في الاونة الاخيرة، وقد تجاوزت ـ فيما تجاوزت ـ الحديث عن العوامل التي ادت الى نجاح حركة التعريب في القطر العربي السوري، وهي التي سوف يناقشها هذا المقال. كما اود ان أشير الى بعض الحقائق المتصلة بحركة التعريب المعاصرة في سوريا، وهي حقائق يمكن ان نجملها على النحو التالي :

ان هذه الحركة قديمة، وليست وليدة ايامنا هذه... فهي تعود الى مطلع هذا القرن، ولم يسبق سوريا في هذا المضمار سوى مصر ابان حكم محمد علي وارساله البعثات الى اوروبا والنهوض بمسألة النقل والترجمة والتعريب... وقد توقفت مصر فيما بعد عن مسألة التعريب ـ لامور خارجة عن ارادتها، وليس هنا مجال بحثها ـ بعد ان كانت قد شرعت بالتعريب قبل غيرها من الدول العربية على حد سواء. يضاف الى ذلك ان حركة التعريب الحديثة في سوريا ارتبطت بشكل او باخر بحركات التحرر الوطني والنضال القومي، التي شهدتها الساحة العربية منذ نهاية القرن الماضي واطلالة القرن الحالي. فجاءت حركة التعريب هذه وهي تحمل ملامح الشخصية العربية في تطلعاتها وتوجهاتها المستقبلية وفي نضالها البطولي. كما ان حركة التعريب السورية تتصف فيما تتصف بالشمولية والاستمرارية، حيث امتدت الحركة الى مختلف الميادين الحياتية والعملية، ولم تقتصر على تعريب ما يحتاج اليه البحث العلمي او الدرس الجامعي من مصطلحات ومسميات... وقد استمرت حركة التعريب منذ ان بدأت، ولم تتوقف عن مسيرتها، وانني على يقين من ان حركة التعريب هذه قد نجحت نجاحا باهرا، وان نجاحها ينبغي ان يتوج بالاقتداء به والسير على هداه. وليس من شك في ان هناك عوامل ادت الى هذا النجاح. واذا كانت بعض حركات التعريب الاخرى اللاحقة تتقاسم مع حركة التعريب السورية بعض هذه العوامل او اكثرها الا انها توافرت في الحركة السورية بشكل واضح ودرجة عالية اكثر مما توافرت لغيرها من حركات التعريب في الوطن العربي. ولست هنا بصدد المفاضلة او المقارنة... فهناك العديد من الدراسات والابحاث التي عنيت بالتاريخ لحركات التعريب الحديثة... والقديمة.

★ ★ ★

فاذا توقفنا عند العامل التاريخي الذي نعده احد العوامل المؤدية الى نجاح حركة التعريب فسوف نعود الى الوراء كثيرا لنجد ان باكورة حركات التعريب الرسمية بدأت في دمشق عاصمة الامويين وحاضرة الخلافة الاموية، ومحط العلماء والشعراء والمترجمين. وهنا ينبغي ان نفرق بين حركة التعريب الرسمية التي بدأت في دمشق، وبين ظاهرة التعريب التي بدأت في العصر الجاهلي، مظاهر التعريب قديمة في اللغة العربية، حيث كان العربي في العصر الجاهلي يقوم بتعريب ما يسمعه او ينقله من مفردات اجنبية

يخضعها لمنطق لغته ويطوعها للسانه وطريقته في الكلام. وهناك العديد من المفردات الاجنبية التي دخلت اللغة العربية بعد ان مرت بعملية التعريب، ويكفي ان نقلب صفحات كتاب المعرب للامام الجواليقي لنعرف كم المفردات المعربة... والذي كان يعول عليه في ظاهرة التعريب هو البديهة والارتجال وعفو الخاطر ومطاوعة اللسان، واما حركات التعريب الرسمية فهي التي يتصدى لها العلماء والمفكرون واللغويون من خلال جملة معايير لغوية مستمدة من منطق اللغة وخصائصها... ولا يعيب هذه المعايير انها كانت في يوم من الايام مستمدة من طريقة العرابي في معالجته للمفردات الاجنبية. ولعلنا ـ بعد ـ لا نعدو الحقيقة حين نذهب الى ان اول حركة تعريب رسمية كانت في دمشق حاضرة بني امية، وقد كان ذلك فيما كان على يد خالد بن يزيد بن معاوية الذي يحكى انه اول من نقل الى العربية من لغة اخرى، وانه شجع على احضار بعض الفلاسفة والعلماء اليونان الذين كانوا ينزلون في مصر، وقد تفصحوا بالعربية ـ الى دمشق، ثم طلب اليهم ان ينقلوا الكتب من اليونانية والقبطية الى العربية، فترجموا ما شاء لهم ان يترجموا... وفي اثناء ذلك تولدت اول حركة رسمية في التعريب، ثم اتسعت هذه الحركة فيما بعد في عهد الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان الذي يعد المؤسس الثاني للدولة الاموية، وقد بدأت في عهده حركة تعريب الدواوين، واحلال اللغة العربية محل لغات اهل البلاد المفتوحة، وتعيين موظفين من العرب للاشراف عليها، فأقبل الكتاب من غير العرب على تعلم العربية حتى نبهوا فيها، ولا ننسى قصة عبدالحميد بن يحيى الكاتب وغيره من الكتاب...

نخلص من هذا كله الى انه اولى حركات التعريب الرسمية بدأت ـ قديما ـ في دمشق حاضرة بني امية، وهذا من شأنه انه قد اعطى حركة التعريب الحديثة في سوريا بعدا تاريخيا، وجعل التواصل الثقافي والفكري بين الماضي والحاضر امرا حتميا، ومن شأنه انه قد امد الحركة الحديثة بالاصالة والعمق، ويسر لها سبل النجاح.

ويقف العامل القومي جنبا الى جنب مع العامل التاريخي، في مؤازرة حركة التعريب السورية ودفعها قدما الى الامام... ذلك ان كثيرا من القبائل العربية القديمة استوطنت قطاعات من الارض السورية قبل الفتح الاسلامي بكثير، وليست امارة الغساسنة الا شاهدا من بين شواهد عديدة، ورمزا من بين رموز كثيرة على ذلك، ومن يتتبع قبيلة بني كلب

وغيرها من القبائل العربية يجد ان جذورها ضاربة جرانها في عمق الاراضي السورية، قبل الفتوح... وفي العصر الحديث، في اطار انبعاث الفكر العربي المعاصر في مواجهة مختلف التحديات، شعر العديد من المسؤولين والمفكرين بضرورة ابراز الهوية القومية للامة العربية، وقد جاء ذلك فيما جاء من خلال التأكيد والمحافظة على مقومات الشخصية القومية، ومما لا شك فيه ان اللغة العربية تأتي في مقدمة هذه المقومات جميعا... ومن هنا كان التركيز

عليها والاهتمام بها من قبل ارباب اللغة والغيورين عليها. وقد اخذ ذلك صورا متباينة واشكالا مختلفة من بينها التحرك نحو التعريب. ومن هنا جاءت حركة التعريب تحمل الطابع القومي، الذي استثمر استثمارا جيدا لصالح الحركة.

وقد لعب العامل النفسي دورا كبيرا في تبني حركة التعريب والحماسة لها، وكلنا يعرف موقف الحكام الاتراك من البلاد العربية ومدى تطرفهم وغلوائهم في الاخذ بسياسة التتريك وفرض تعلم اللغة التركية على حساب اللغة العربية وقد ادى ذلك الى شحن النفوس بالكراهية والبغضاء كما ادى الى شحذ الهمم والعزائم الى العمل الجاد في المحافظة على الثوب العربي نقيا من شوائب العجمة والدخيل، في وقت اشتدت فيه الحاجة الى المعرفة والعلم وقد غابت رايتهما عن الامة العربية ردحا من الزمن وهي تكتوي بظلام عصور مظلمة من التخلف والجهل والاختلال. ولعل القطر السوري كان من اكثر البلاد العربية تأثيرا بسلبيات الحكم التركي، وويلاته، وقد دفع ذلك بالنفوس الى المزيد من الحرص على حركة التعريب، والتشبث بها، ودفعها الى الامام